المدنية الإسلامية وتأثيرها في مسيرة الحياة البشرية (الحياة الأوربية أُنموذجا)

أحمد عبدالله صلاح

قسم الدراسات الإسلامية، كلية التربية والعلوم، جامعة البيضاء ، الجمهورية اليمنية.

Email: aasalah5@gmail.com

DOI: https://doi.org/10.56807/buj.v1i1.5

ملخص البحث:

يهدف البحث إلى الرد على كل من حاول الطعن في المدنية الإسلامية، أو استخف بها، أو تجاهل ما قدمته للبشرية في شتى المجالات، وذلك ببيان معالم المدنية الإسلامية، ونواحي تأثيرها في مسيرة الحياة البشرية عامة، والحياة الأوربية بشكل خاص. وتم تقسيم البحث إلى مقدمة وتمهيد ومبحثين وخاتمة، وتضمنت المقدمةُ أهداف البحث والمنهجية المتبعة فيه، فيما تضمن التمهيد مدخلا للبحث، وجاء المبحث الأول تحت عنوان خصائص المدنية الإسلامية ومعالمها، وتضمن بيان مفهوم المدنية الإسلامية وخصائصها، وما قدمه علماء الإسلام للبشرية في شتى المجالات العلمية والفكرية. وجاء المبحث الثاني تحت عنوان نواحي تأثير المدنية الإسلامية على مسيرة الحياة الأوربية، وتضمن بيان أوجه ذلك التأثير في مجال الطب، والتقدم العلمي، وإنشاء المدارس، والمؤسسات الخيرية، والإدارة والتشريع، والأخلاق والأدب، والترفيه، والتجارة، والفن والعمارة وغيرها. وتضمنت الخاتمة أهم النتائج التي توصل إليها الباحث وأهم التوصيات، وذُيلَ البحث بقائمة بأهم مصادر البحث ومراجعه.

كلمات مفتاحية: *المدنية الإسلامية– الحضارة – البشرية– الأوربية*

Abstract

The aim of the research is to respond to all those who tried to distort or disparage the Islamic Civilization, or ignore what it offered to humanity in various fields. This research has been divided into an introduction, a preface, two chapters and a conclusion. The introduction included the objectives of the research and the methodology used in it, while the introduction included an introduction to the research. The first topic included the characteristics of the Islamic Civilization and its milestones. It also produced a statement of the concept of Islamic Civilization and its characteristics, and dealt with what the scientists of Islam have provided to mankind in various scientific and intellectual fields. The second section, entitled "The Influences of the Islamic Civilization on the European Life Process", included a statement of the effects of these influences in the field of medicine, scientific progress, establishment of schools, charitable institutions, administration and legislation, ethics and literature, entertainment, commerce, art and architecture. The conclusion included the most important findings and results of the research and recommendations of the researcher. The conclusion was followed by a list of the most important sources and references used in the research and its review.

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، أحمده تعالى حمداً يليق بجلاله، وأشكره على ما أنعم به عليّ من أفضاله، وأُثني عليه الخير كلّه، وأسأله أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، وأصلّي وأسلّم على من بعثه الله رحمة للعالمين، فهدى به الإنسانية، وأنار به أفكار البشرية، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

فقد وصلت عداوة بعض المناوئين للإسلام إلى حد الطعن في مدنيته والإجحاف بحقه، وبخس فضله على المدنية، في محاولة لطمس صفحته المشرقة من سجل الحضارة، وذلك بالزعم بأن الإسلام كان ولا يزال عاجزا عن أن يساير الزمن ويجاري التمدن، وأن المدنية الإسلامية ماهي إلا حفظ وتقليد لمدينتي اليونان والرومان وغيرهما، اقتبسها المسلمين وحفظوها دون أن يعترضوا لها بما يستحق الذكر من النقد؛ لأنه لا قدرة لهم على الإبداع، فهم لم يتقنوا من العلوم إلا التي لا تحتاج إلى عناء في التفكير، أو مشقة في البحث والدراسة.

في الوقت الذي كان فيه المسلمون إذا اقتبسوا من الفلسفة اليونانية، أو غيرها لم يكونوا مقلدين تقليداً صرفاً، إنما كانوا دائماً يُعملون العقل فيما نقلوا، ويعملون العقيدة الدينية فيما قرؤوا. فدعوى أن المسلمين كانوا حفظة للثقافة اليونانية أكثر منها، مبتكرين لثقافة خاصة لا تستند على دليل علمي؛ لأن فضل المسلمين على المدنية الحديثة كان من ناحية حفظهم لثقافة غيرهم من الأمم، ولولاهم لضاع كثير منها، ومن ناحية ما أنشؤوا وابتكروا. فعندما اتجهت إلى الاستعانة بالفلسفة اليونانية والثقافة الفارسية والهندية، لأن الدين حملها على ذلك وطلب منها أن تطلب العلم حيثما كان وأينما كان.

وتكمن حجة المستخفين بقيمة المدنية الإسلامية أنها ليست شيئًا، إذا قيست بما قدمته المدنية الحديثة من اختراعات وفنون في آفاق العلم الحديث، وهذا لو صح لا يبرر الاستخفاف بالمدنية الإسلامية لسببين الأول: أن كل حضارة فيها عنصران: عنصر روحي أخلاقي، وعنصر مادي. أما العنصر المادي فلا شك في أن كل حضارة متأخرة تفوق ما سبقها، تلك هي سنة الله في تطور الحياة. أما العنصر الأخلاقي والروحي فهو الذي تُخلد به الحضارات، وتؤدي به رسالتها في عمارة الأرض وإسعاد الإنسانية. فلقد سبقت الحضارة الإسلامية كل الحضارات السابقة في هذا الميدان، وبلغت فيه شأنا لا نظير له في أي عصر من عصور التاريخ، ويكفيها خلودًا بهذا، والثاني: أن الحضارات لا يقارن بينها بالمقياس المادي، ولا بالترف المادي في المعيشة والمأكل والملبس، وإنما يقارن بينها بالآثار التي تتركها في تاريخ الإنسانية (الشحود –2004–10) وهذا هو محور هذا البحث.

فهل كان العَالم يستطيع أن يقف على درجة السُّلم التي يقف عليها الآن لو لم تكن مدنية الإسلام ؟ وهل كانت النهضة الأوربية الحديثة تحدث في الزمن الذي حدثت فيه لو لم ترتكز على المدنية الإسلامية؟

والإجابة على ذلك بالنفي القاطع، ولكن يعلم الله كم كانت ستتأخر المدنية الحديثة لو لم ترتكز على المدنية الإسلامية؛ لأن تاريخ المدنيات حلقات يسلم بعضها إلى بعض، ويستفيد لاحقها بما وصل إليه سابقها. وقد كانت المدنية الإسلامية في الذروة قبيل المدنية الحديثة، ولم يكن يضارع بغداد وقرطبة مدينة أخرى في العالم في مدنيتهما وثقافتهما وصناعتهما، ونضمهما الإدارية والحربية.

أهمية البحث وأهدافه:

تتثمل أهميه البحث وأهدافه بأنه يقوم بالرد على كل من يحاول الاستخفاف بما قدمته المدنية الإسلامية للبشرية والتقليل منه. وذلك ببيان مجالات ومعالم المدنية الإسلامية في مختلف نواحي الحياة العلمية والفكرية، وما قدمته لخدمة البشرية، وبيان نواحي تأثير وفضل المدنية الإسلامية على مسيرة الحياة البشرية بشكل عام وعلى الحياة الأوربية بشكل خاص.

المنهجية المستخدمة:

استخدمت منهج البحث الوصفي والتحليلي التاريخي، كما قمت بمراعاة الأمور التالية:

- عزو الآيات القرآنية إلى سورها، وأرقامها، مضبوطة بالشكل.
- تخريج الأحاديث بالاعتماد علي الصحيحين، أو أحدهما، وما لم يرد فيهما قمت بتخريجه من كتب السنة المعتبرة مبينا الكتاب، والباب، والجزء، والصفحة، مع الحكم على الحديث.
- إتباع المنهج العلمي في توثيق المعلومات أياً كانت سواء من مرجع قديم، أو جديد، والحرص على تعدد المصادر في المعلومة الواحدة، إن أمكن ذلك.
- عند ورود اسم الكتاب في الهامش كمصدر أو مرجع فإني أقوم بذكره عند أول ورود له كاملا، أي اسم الكتاب، ومؤلفه، ودار النشر، ومكانه، وتاريخه.
- التركيز على موضوع البحث دون استطراد، وإن استلزم الأمر ذلك فاختصرت اختصاراً غير مخل.

خطة البحث:

أقتضى تقسيم البحث إلى مقدمة وتمهيد، ومبحثين، وخاتمة، وكانت خطة البحث على النحو التالي:

المقدمة: تضمنت أهمية البحث وأهدافه، المنهجية المستخدمة فيه.

التمهيد: عبارة عن مدخل إلى البحث.

المبحث الأول: بعنوان خصائص المدنية الإسلامية ومعالمها.

المبحث الثاني: بعنوان صور تأثير المدنية الإسلامية على مسيرة الحياة الأوربية.

الخاتمة: وتضمنت أهم النتائج والتوصيات، وذيلتُ البحث بفهرس لقائمة أهم المصادر والمراجع.

التمهيد:

كان ظهور المدنية الإسلامية قد مثل فصلاً جديداً في تاريخ الأديان والأخلاق، وظاهرة جديدة في عالم السياسة والاجتماع، انقلب به تيار المدنية، واتجهت به الدنيا اتجاهاً جديداً في جميع المجالات.

وكل من ينظر في القرآن الكريم والسنة النبوية يعلم مدى حثهما على العلم والمعرفة والثناء على أهلها، والأمر بالنظر والتدبر في الكون، والثناء على العقل والعقلاء، والأمر بعمارة الأرض وبنائها على منهج الله.

ومن هذا المنطلق اتجه المسلمون نحو العلم والمعرفة وبناء الأرض منذ نزول(**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ**) (سورة العلق– الآية: 1)، ولقد كرم الإسلام العلم، وأعطى لأهله من الفضل والمنزلة منزلة كبيرة على سائر الناس، بما فيهم العُبّاد الذين نذروا أنفسهم لعبادة الله، يقول تعالى:(**يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ**) (سورة العلق– الآية: 1) ، ويقول تعالى:(**قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ**) (سورة الزمر– الآية: 9) ، ويقول ﷺ : " فَضْلُ العَالِمِ عَلَى العَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَاكُمْ، إِنَّ اللَّهَ وَمَلاَئِكَتَهُ وَأَهْلَ السَّمَوَاتِ وَالأَرَضِينَ حَتَّى النَّمْلَةَ فِي جُحْرِهَا وَحَتَّى الحُوتَ لَيُصَلُّونَ عَلَى مُعَلِّمِ النَّاسِ الخَيْرَ" (الترمذي–2685–347/4).

وحوى القرآن من الحث على العلم والسعي واكتشاف أسرار الطبيعة، في الكثير من آياته قال تعالى(**قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**) (سورة يونس– الآية: 101)، **وقال تعالى:**(**أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ**) (سورة الأعراف– الآية: 185)، **وقال تعالى:**(**وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ**) (سورة الذاريات– الآية: 21).

لقد خلق الله تعالى الإنسان في الأرض ليقوم بالعبودية له، وهيأ له الظروف المثلى للحياة السعيدة المستقرة، ثم استخلفه فيها ليقوم بإعمارها على الوجه الأكمل الذي يحقق به مرضاة ربه وخدمة بني جنسه، ويعمرها وفق ما شرعه الله، يقول تعالى:(**وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا**) (سورة النور– الآية: 55).

وقد حث الإسلام على بذل الجهد، واستفراغ الوسع في إعمار الأرض حتى في أحلك الظروف، فعن أنس رضي الله عنه قال: قال ﷺ : " إِنْ قَامَتْ عَلَى أَحَدِكُمُ الْقِيَامَةُ، وَفِي يَدِهِ فَسِيلَةٌ فَلْيَغْرِسْهَا " (أحمد بن حنبل–12902– 251/20). ومن هنا تظهر أهمية عمارة الأرض، وبنائها بناءً يخدم الإنسانية، وبنفس الوقت حذر الإسلام من الطرق المؤدية إلى تبديد الحضارات وهدم عمرانها. والإنسان مُستخلف في الأرض، والاستخلاص في الأرض يعني العمارة والإصلاح، وتحقيق العدل والطمأنينة والارتفاع بالنفس البشرية والنظام البشري نحو الرقي والرفاه والسعادة.

والمتأمل في معنى العمارة في الإسلام يلاحظ أنه يتناول الإعمار على كل المستويات، بدءً من إعمار الإنسان؛ لأنه هو الأساس الذي ينبني عليه إعمار الأرض، ولا يمكن أن تؤسس الحضارة الإنسانية إلا بإعمار وتزكية الجانب الإنساني فيها، ومن ضمن عمارة الأرض بنائها من جميع جوانبها في العقائد والأخلاق وفي المال والحكم وفي العلم والفكر، وكل ما فيه نفع وخدمة للبشرية لما يحقق لها الرقي والرفاة والسعادة.

وعمارة الأرض مهمة يشترك فيها الجنس البشري بشكل عام، والمسلم على وجه الخصوص، فنفع المسلم يتعداه إلى غيره من الناس جميعا لأنه كالغيث، أينما حل نفع، وهو مطالب بالتعايش مع البشر جميعا في إطار من التعاون الإنساني، والتعارف الذي لا يخل بواجباته نحو دينه وخالقه(**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا**) .

ومن خلال ما سبق يظهر لنا حث الاسلام على عمارة الأرض، والانفتاح والاطلاع والعلم والمعرفة والابداع والاختراع. فهذا ما يأمر به الدين ويحث عليه، كون الفكر نتاج المعرفة الإنسانية فيما فيه منفعة فهذا أمرٌ مشترك بين سائر البشر، يستفيد فيه بعضهم من بعض؛ لأن الإسلام دينٌ شاملٌ لكل جوانب الحياة الإنسانيّة، الروحية والمادية، الفردية والجماعيّة، العلمية والعملية، وحين تمسك المسلمون بدينهم والتزموا شرائعه سبقوا أُممَ الدنيا، وحملوا مشعلَ العلم والحضارة، وأخرجوا للعالم مدنيةً عظيمة، لا تزال آثارها واضحة، ويحسن بنا أن ننقل هنا بعضا من اعترافات العلماء المنصفين بإبداع المسلمين، وكيف كان إعجابهم بمآثر المدنية الاسلامية في شتى نواحي الحياة العلمية والفكرية.

يقول الدكتور ستانلي لين بول في كتابه تاريخ العالم: " لم يحدث في تاريخ المدنية حركة أكثر روعة من ذلك الشغف الفجائي بالثقافة الذي حدث في جميع أنحاء العالم الإسلامي، فكان كل مسلم من الخليفة إلى الصانع، يبدو كأنما قد اعتراه فجأة شوق إلى العلم وظمأ إلى السفر، وكان ذلك خير ما قدّمه الإسلام من جميع الجهات"(الستار–188).

ويقول المؤرخ جوليفيه كستلو في كتابه قانون التاريخ: بأن " التقدم العربي بعد وفاة الرسول ﷺ كان عظيماً، جرى على أسرع ما يكون، فنشأت المدنية الإسلامية نشأة باهرة، قامت في كل مكان مع الفتوحات بذكاء غريب، ظهر أثره في الفنون والآداب والشعر والعلوم. وقبض العرب بأيديهم – خلال عدة قرون – على مشعل النور العقلي، وتمثلوا جميع المعارف البشرية ... فأصبحوا سادة الفكر، مبدعين ومخترعين، لا بالمعنى المعروف، بل بما أحرزوه من أساليب العلم التي استخدموها بقريحة وقّادة للغاية، وكانت المدنية العربية قصيرة العمر، إلا أنها باهرة الأثر، وليس لنا إلا إبداء الأسف على اضمحلالها "(السباعي–1999–82) .

وقد ظهر تأثير الإسلام العقلي في نزعات المصلحين، والثائرين على النظام الذي كان سائدا في ذلك الوقت، كما يؤكد كثير من الباحثين أن (لوثر) في حركته الإصلاحية كان متأثراً بما قرأه للفلاسفة العرب والعلماء المسلمين من آراء في الدين والعقيدة والوحي، وحركة الفصل بين الدين والدولة التي أُعلنت في الثورة الفرنسية كانت وليدة الحركات الفكرية العنيفة التي سادت أوروبا ثلاثة قرون، أو أكثر، وكان للحضارة الإسلامية فضلٌ في إيقاد جذوتها عن طريق الحروب الصليبية في الأندلس(الندوي–116).

ونرى أيضا تأثير العقلية الإسلامية في أخلاق الأمم اجتماعها وتشريعها في أوربا المسيحية وفي الهند الوثنية بعد الفتح الإسلامي، في الاتجاه إلى التوحيد ونزعات الاحترام للمرأة وحقوقها، والاعتراف بمبدأ المساواة بين طبقات البشر، إلى غير ذلك مما سبق إليه الإسلام وامتازت به شريعته ومدنيته(الندوي–116).

ولا تستطيع مدنية من المدنيات التي تعيش في العالم المتمدن أن تنكر تأثرها بمدنية المسلمين. يقول ديورانت في كتابه(قصة الحضارة): " إنَّ قصتنا تبدأ بالشرق، لا لأن آسيا كانت مسرحاً لأقدم مدنيّة معروفة لنا فحسب، بل كذلك لأن تلك المدنيات كونت البطانة والأساس للثقافة اليونانية والرومانية، وكم من نظامنا الاقتصادي والسياسي ومما لدينا من علوم وآداب، وما لنا من فلسفة ودين، يرتدُّ إلى مصر والشرق ،(ديورانت–1988–15/1).

ويقول روبرت برايفلت في كتابه (صناعة الإنسانية): " ما من ناحية من نواحي تقدم أوربا إلا وللحضارة الإسلامية فيها فضل كبير وآثار حاسمة لها تأثير كبير. ويقول في موضع آخر: " لم تكن العلوم الطبيعية (التي يرجع فيها الفضل إلى العرب) هي التي أعادت أوربا إلى الحياة، ولكن الحضارة الإسلامية قد أثرت في حياة أوربا تأثيرات كبيرة ومتنوعة منذ أرسلت أشعتها الأولى إلى أوربا" (الندوي–94).

ويقول المستشرق سيديو: "كان العرب وحدهم حاملين لواء الحضارة الوسطى، فدحروا بربرية أوروبا التي زلزلتها غارات قبائل الشمال، وسار العرب إلى منابع فلسفة اليونان الخالدة، فلم يقفوا عند حد ما اكتسبوه من كنوز المعرفة بل وسعوه وفتحوا أبواباً جديدة لدرس الطبيعة " (السباعي–85)

وجملة الأمر في مدنية المسلمين كما لخصها الأستاذ لكي خير إذ قال: لم تبدأ النهضة الفكرية في أوربا إلا بعد أن انتقل التعليم من الأديرة إلى الجامعات، وبعد أن حطمت العلوم الإسلامية، والأفكار اليونانية، والاستقلال الصناعي، سلطان الكنيسة (أمين–147).

تلك هي مدنية المسلمين بالأمس، أما موقعهم من المدنية الحديثة فهم مقلدون فيه للمدنية الغربية في الصناعات والمخترعات ونظم الحكومات والإدارات، وفي كتبهم التي تؤلف في العلوم الحديثة من جغرافيا وتاريخ وطبيعة وكيمياء وغيرها، ونظام مدارسهم الحديثة ومحاكمهم وقوانينهم وغيرها.

ومن يمعن النظر في ما حققته المدنية الإسلامية للإنسانية من أسباب النمو، وعوامل الازدهار، ويلم بما جاء به الفكر الإسلامي، من مفاهيم تناولت أهم معضلات الحياة، يدهشه مدى عمق التفكير الواعي الذي بلغ ذروته علماء الإسلام ، وما بذلوه من الجهود العلمية التي ملأت الدنيا بإشراقها وساهمت في خدمة المجتمع البشري .

المبحث الأول: خصائص المدنية الإسلامية ومعالمها.

أولا – خصائص المدنية الإسلامية.

1- مفهوم المدنية الإسلامية :

المدنية هي الشق الآخر للحضارة، " فالحضارة هي مدى ما وصلت إليه أمة من الأمم في نواحي نشاطها الفكري والعقلي من عمران وعلوم وفنون وما إلى ذلك، والترقي بها في مدارج الحياة. وهي: " الجهد الذي يقدمه مجتمع من المجتمعات لخدمة المجتمع البشري في جميع نواحي حياته المعنوية والمادية " ، أو هي الإنجازات التي تحققت للبشرية، أو تحققها البشرية، من خلق وسلوك ومعارف، بينما يراها آخر بأنها ثمرة كل جهد يقوم به الإنسان لتحسين ظروف حياته (الدوري–2012–3 &عبيد–14).

وبالرجوع إلى كتب اللغة يظهر لنا بأن كلمة (تَمَدَّن) تعني: عيشة أهل المدن والأخذ بأسباب الحضارة وكلمة (تمدين) تعني: العيش عيشة أهل المدن والتنعم والأخذ بأسباب الحضارة، و(المدنية) تعني: الحضارة واتساع العمران(المعجم الوسيط–859/2).

فهي إذا ما قدمه المجتمع الإسلامي للمجتمع البشري من قيم ومبادئ، في الجوانب الروحية والأخلاقية، فضلاً عما قدمه من منجزات واكتشافات واختراعات في الجوانب التطبيقية والتنظيمية(عارف –1994– 27).

وهي الحركة الفكرية والحضارية الكبرى في شتى مناحي الحياة الإنسانية، التي ساهمت في صياغة وتكوين المدنية والتي كان الإسلام هو الموجه لصياغتها وتكوينها وبنائها.

2– خصائص المدنية الإسلاميّة:

أ– التوحيد الخالص: وكان لهذه العقيدة أثر كبير، تكاد تتميز به عن كل الحضارات السابقة واللاحقة وتنعكس هذه العقيدة على كل جوانب الحياة ،حتى في فن البناء والعمارة. فنجد أنّ فن العمارة الإسلامية والفن الإسلامي بشكل عام لا تبدو عليه مظاهر الوثنيّة وآدابها وفلسفتها في العقيدة والحكم والفن والشعر والأدب، وهذا هو سر إعراض المسلمين عن ترجمة الإلياذة وروائع الأدب اليوناني الوثني، وهو سر تقصير الفن الإسلامي في فنون النحت والتصوير مع تبريزها في فنون النقش والحفر وزخرفة البناء. لأن الإسلام الذي أعلن الحرب علي الوثنية ومظاهرها لم يسمح لحضارته أن تقوم فيها مظاهر الوثنية بأي شكل (السباعي–71).

ب–النزعة الإنسانيّة والأفق العالمي: انطلاقا من قوله تعالى: **(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا)**. فكان من ثمرة دعوة القرآن لهذه الوحدة الإنسانية أن نجحت الحضارة الإسلامية في صهر جميع الشعوب في بوتقة واحدة، وأفلحت في إزالة حواجز الجنس واللون واللغة (الجندي– 1982– 69).

والقرآن الكريم حين أعلن هذه الوحدة الإنسانية العالمية، جعل حضارته عقدا تنتظم فيها جميع العبقريات للشعوب والأمم التي خفقت فوقها راية الفتوحات الإسلامية، ولذلك كانت كل الحضارات تفاخر بالعباقرة من أبناء جنسها، إلا الحضارة الإسلامية فإنها تفاخرت بالعباقرة الذين أقاموا صرحها من جميع الأمم والشعوب (السباعي–71).

بل إن كثيراً من أفرادها فاقوا العرب في بعض الفضائل، وكان منهم الأئمة والفقهاء والمحدثين، حتى قال ابن خلدون: " من الغريب الواقع أنّ حملة العلم في الملّة الإسلاميّة أكثرهم العجم، لا من العلوم الشّرعيّة ولا من العلوم العقليّة إلّا في القليل النّادر. وإن كان منهم العربيّ في نسبته فهو أعجميّ في لغته ومرباه ومشيخته مع أنّ الملّة عربيّة وصاحب شريعتها عربيّ (ابن خلدون-1988-747).

جـ- الأخلاقيّة في التشريع والسلوك: وذلك في الحكم، وفي العلم، وفي التشريع، وفي الحرب، وفي السلم، وفي الاقتصاد، وفي الأسرة والأدب والفن، وكل مظاهر الحياة الإسلاميّة. راعت المبادئ الأخلاقية تشريعا وتطبيقا، ولم تكن وسيلة لمنفعة دولة أو جماعة أو أفراد، وبلغت في ذلك شأن لم تبلغه حضارة في القديم والحديث (السباعي-72).

د- الاستناد والتأسيس على العلم: ويظهر أثر ذلك جليا في النهوض العلمي والفكري الكبير الذي انتجته الحضارة الإسلامية، والذي لم يسبق له مثيل في تاريخ البشريّة. بل إنّ الواقع العلمي المعاصر في العالم الغربي تعود آثاره إلى نتاج الحضارة الإسلامية، وعلى وجه الخصوص المنهجية العلمية في البحث والتفكير. وكان الدين من أكبر عوامل الرقي فيها، فمن بين جدران المساجد في بغداد ودمشق والقاهرة وقرطبة وغرناطة انطلقت أشعة العلم إلى أنحاء الدنيا. والحضارة الإسلامية هي الوحيدة التي لم يُفصل فيها الدين عن الدولة مع نجاتها من كل مآسي المزج بينهما كما عرفته أوروبا في القرون الوسطى (السباعي-71).

هـ- التسامح الديني: لقد قامت الحضارة الإسلاميّة على أساسٍ من الدين الذي لم تعرفه حضارة مثلها قامت علي الدين. على أشد ما عرف التاريخ تسامحا، وعدالة، ورحمة، وإنسانية. فكانت في ذلك الاستثناء الوحيد في تاريخ الحضارات البشريّة والأمثلة على ذلك كثيرة جدا، وسيأتي الحديث عن ذلك.

ثانيا- معالم المدنية الإسلامية :

الحضارة الإسلامية هي نظام متكامل يشمل كل ما يتعلق بأفكار الإنسان وآرائه وأعماله وأخلاقه في جميع جوانب حياته الفردية، أو العائلية، أو الاجتماعية، أو الاقتصادية، أو السياسية، والحضارات إنما تخلد بالقدر الذي تقدمه من آثار خالدة في مختلف النواحي الفكرية والخلقية، والمادية، من تاريخ الإنسانية، وقد لعبت الحضارة الإسلامية دوراً خطيراً في تاريخ التقدم الإنساني، وتركت صفحات بيضاء مشرقة في سجل التاريخ الإنساني لا تنسى ولا يمكن تجاهلها، وتركت آثاراً بعيدة المدى وقوية التأثير في ميادين العقيدة والعلم والحكم والفلسفة والفن والأدب، اعترف بها العدو قبل الصديق، حيث استطاعت الحضارة الإسلامية أن تقدم للعالم كله حضارة من أعظم وأرقى الحضارات، وتراثاً علمياً زاخرا في جميع نواحي الحياة الإنسانية (المودودي-288& ضناوي-1988-18)، لهذا سنحاول إبراز معالم هذه الحضارة وبيان ما قدمه علماء الإسلام باختلاف تخصصاتهم العلمية، وايضاح ما أبدعه المسلمون الأوائل في شتى ميادين الحياة. ففي الوقت الذي كانت أوربا تعيش فيه عصر الظلام والضعف والتخلف في شتى مجالات الحياة، كان العالم الإسلامي يعيش أزهى مراحل القوة والمدنية.

وما سنذكره هنا عن المدنية الإسلامية إلا نماذج مما قدمه أعلام الإسلام في شتى العلوم والمعارف، الذين حملوا مشعل الحضارة في تلك المرحلة من مراحل التاريخ الإنساني، وقد اعترف علماء الغرب ومؤرخيهم بهذه الحقيقة بأن النهضة الحديثة في أوروبا تدين بوجودها لما تلقته من الشرق العربي الإسلامي، من علوم ومعارف في شتى مجالات الحياة والتي ساهمت بشكل رئيس في ظهور النهضة الأوربية الحديثة.

1- العلوم الشرعية الدينية:

لقد زخرت جميع علوم الشريعة الإسلامية بما أبدعه وقام به علماء الإسلام في جميع مجالات الشريعة، ففي مجال التفسير وعلوم القرآن صنف الإمام الطبري كتابه جامع البيان عن تأويل آي القرآن، والقرطبي كتابه الجامع لأحكام القرآن، وابن العربي كتابه أحكام القرآن.

وفي مجال علوم الحديث الشريف صنف الإمام البخاري والإمام مسلم صحيحيهما، وابن حجر العسقلاني كتابه فتح الباري، وفي مجال العقيدة صنف الإمام ابن تيمية كتابه منهاج السنة النبوية، والشهرستاني كتابه الملل والنحل، والبغدادي كتابه أصول الدين، وفي مجال الفقه وعلومه صنف الإمام ابن رشد كتابه بداية المجتهد، وابن قدامة المقدسي كتابه المغني، وابن حزم كتابه المحلى.

وغير ذلك من المصنفات والمؤلفات التي تعدُّ بالمئات والآلاف، مما هو موجود في المكتبات الإسلامية في العالم الإسلامي بالإضافة إلى الكثير من المخطوطات والمفقودات(شعث-34).

2- اللغة والأدب:

لقد اهتم العلماء المسلمون اهتمامًا عظيمًا باللغة العربية، لأن باقي العلوم الإسلامية تحتاج إلى فهم اللغة العربية فهمًا جيدًا، فأحاطوا باللغة من جميع جوانبها، وكانت اللغة العربية لغة الحضارة الإسلامية، تعلمها سكان البلاد التي فتحها المسلمون الأوائل، وصارت لغة العلم في كافة الأقطار الإسلامية. وظهر عدد من الأدباء والفصحاء من الشعراء والخطباء الذين أبدعوا في الشعر والنثر الذي أمتع العقول والمشاعر.

واشتهر بعض العلماء في اللغة وآدابها في عدد من بلاد الدولة الإسلامية، كأحمد بن جعفر الدينوري والذي ألف كتاب إصلاح المنطق، وأبو جعفر النحاس الذي ألف كتاب إعراب القرآن، ومعاني القرآن، وشرح أبيات سيبويه. وأبو الفتح عثمان بن جني تلميذ أبي علي الفارسي، وقد درس ابن جني الكتاب لسيبويه، وغيره، ولابن جني مؤلفات عديدة، منها سر صناعة الإعراب، والخصائص(www. elgasser. Math. Com.

واهتم العلماء بدراسة حروف اللغة وخصائص كل حرف، وكيفية النطق به، وأخرجوا علمًا يُسمى علم الأصوات، وبرز في هذا المجال الخليل بن أحمد الفراهيدي، وهو أول من أعد معجما لغويا متكاملا سماه كتاب (العين)، ورتبه على مخارج الحروف، ثم ظهرت المعاجم الاخرى كالصحاح للجوهري، القاموس المحيط للفيروز آبادي، ولسان العرب لابن منظور، وممن كتبوا في علم الصرف العالم اللغوي الشهير سيبويه، وأخرجوا علم النحو، ومن أوائل من ألَّفوا فيه سيبويه، وذلك في كتابه الذي سماه (الكتاب)(www. elgasser. Math. Com).

3- علوم الطب والصيدلة:

توصل الأطباء المسلمون إلى أراء جديدة في الطب تخالف أراء القدماء في معالجة كثير من الأمراض، اعتمدوا التشخيص والنظر إلى تاريخ المريض الطبي، وتنبهوا للعدوى، والأمراض المعدية.

وقد ترك العلماء المسلمون مؤلفات علمية عظيمة في مجال الطب، واشتهر الكثير منهم في علوم الطب والصيدلة منهم أبو بكر الرازي الذي ألف كتابا في الطب سماه (الحاوي)، وجمع فيه صناعة الطب، وأبو القاسم الزهراوي الذي كان له سبق الجراحة في الطب، وإليه تعود صناعة آلات الجراحة واستخدامها، وابن النفيس الذي اكتشف الدورة الدموية، وابن سينا الذي ألف كتاب القانون. والعلماء المسلمون هم أول من وضع أسس الصيدلة، فهم المؤسسون الحقيقيون لهذا العلم، حيث جعلوا الصيدلة علماً مستقلاً، وأنشأوا مدارس خاصة بها، وأبدعوا في مزج المواد الكيماوية وصناعتها وجعلها على شكل أقراص أو محاليل، واكتشفوا العقاقير الطبيعية وغير ذلك من علوم الصيدلة، وكان من أشهرهم ابن البيطار الأندلسي الذي ألف في صفات المواد والنباتات والأعشاب، واشتهر ابن البيطار في طب الأسنان وجراحتها، وظلت كتبه في الصيدلة هي المراجع الوحيدة لهذا العلم لمدة خمسة قرون (الملا- 38& خنفر- 460& فروخ1980-294 &عبدالرحمن -1977-58).

4- التجارب العلمية :

كان الكثير من الناس إلى عهد غير بعيد لا يزالون يعتقدون أن العلم بمعناه الحديث وأساليبه الحاضرة من حيث استناده على الحس والمشاهدة والتجربة والاستنباط هو من مولدات هذه العصور، ومن مميزات المدنية الحديثة، ولكننا إذا تتبعنا الحركة العلمية في المدنية الإسلامية وجدنا فيها ما يثير الاعجاب والاكبار لأولئك العلماء الذين كانوا مثلا أعلى للنشاط العلمي بجميع معانيه، فلقد كانت الفكرة العلمية نامية لديهم وبالغة من التجريد والتعميم درجة كبيرة، فكانوا يقولون كما يظهر من آثارهم بالقوانين وبشمولها واطرادها، ويسلكون في استنباطها واستخراجها الطرق المعروفة إلى اليوم، والتي تستند إلى المشاهدة والتجربة، فلم يكن استعمال التجارب أداة للتحقيق العلمي مقصوراً على العصور الحديثة، فالمدنية الإسلامية كانت واضحة في هذا الميدان، فلم يُقصر علماؤها في القيام بالتجارب العلمية الكثيرة، وتقليبها على وجوهها، ولم تعوز تجاربهم تلك دقة الملاحظة، لشروط الحادث الطبيعي وظروفه، والعوامل المؤثرة في تغييره، ولم يَفُتْهم إحكام القياس وجودة الاستنباط (مجلة الرسالة-42-1943-93)

ولعل تجربة أبي الريحان البيروني في رسوب الأجسام وطفوها على وجه الماء، تلك التجربة المؤدية إلى فكرة كثافة الأجسام وهي تطبيق للقانون المشهور الآن باسم قانون أرخميدس، والتجربة بعينها يجرونها اليوم في مخابر التعليم من غير تغيير يذكر، ومن خلال تجارب تنقية المواد وضبط الأوزان وتعيينها، وفكرة إرجاع الكيفيات في الحوادث الطبيعية إلى الكميات كانت معروفة شائعة لديهم، وهي الفكرة التي يرتكز عليها علم الطبيعة اليوم، والتي كانت وسيلة لرُقيه السريع وبلوغه تلك المنزلة الرفيعة التي ارتقى إليها في هذا العصر(مجلة الرسالة-42-1943-93).

قال الدكتور(جوستاف فالويوني) في كتابه القيم (حضارة العرب): " ويعزى إلى أنه أول من أقام التجربة والملاحظة اللتين هما أساس المناهج العلمية الحديثة، ولكنه يجب أن نعترف قبل كل شيء بأن ذلك كله من عمل العرب وحدهم (مظهر-132.

5- علوم الفلك:

كان اتجاه العلماء المسلمون لدراسة علم الفلك بناءً على دوافع علمية ودينية، كتوجيه القرآن الكريم وارشاده لهم بالنظر والتأمل إلى السماء وما فيها من أفلاك ونجوم وبروج، كما أن حاجتهم إلى علم الفلك ظهرت عند السفر على البحار في السفن، ومعرفة أوقات الصلاة ومعرفة الزمن والشهور والسنين والأهلة وغيرها، كل ذلك حملهم ودفع بهم إلى الاتجاه نحو هذه الدراسة، وإليهم يعود الفضل في اختراع آلة الرصد "التلسكوب "، والساعة الشمسية، واشتهر منهم في هذا المجال أبو الحسن الصوفي والبتاني (الدفاع-52) ، كما نقوا هذا العلم من التنجيم والشعوذة التي كانت تخالطه.

6- علوم الجغرافيا:

لقد استفاد المسلمون من معارف الأمم السابقة في الجغرافيا، وأضافوا إليها معلومات جغرافية كثيرة فاهتم العلماء المسلمون بعلم الجغرافيا وابدعوا فيه، وحملهم على ذلك رحلاتهم إلى الديار المقدسة لأداء فريضة الحج، كذلك الفتوحات الإسلامية، ولهذا قاسوا المسافات بين البلدان، ووصفوا مناخها وطبيعتها وبحارها وأنهارها ومنابعها وسهولها وجبالها، وتكلموا في طبقات الأرض وعلم المياه والبحار، كما تحدثوا عن دوران الأرض وكرويتها، كل هذا كان سبباً في نشأة علم الملاحة أيضا، وكان الإدريسي من أشهر علماء هذا المجال حيث رسم خرائط متنوعة للأرض، وهو صاحب كتاب(نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) "، وياقوت الحموي صاحب كتاب (معجم البلدان) (اليوزبكي-2010-138).

وفي الوقت الدي كان فيه المعلمون في الأندلس يشرحون لطلابهم عن كروية الأرض ويصنع ابن يونس كرة جغرافية فضية، ويهديها إلى روجر الثاني ملك صقلية، كان الأوربيون لا يزالون يجهلون حقيقة كروية الأرض لحين أعلن العالم الإيطالي جاليليو اكتشافه لكروية الأرض بعد أكثر من 500 عام(العطار-2011)

7- علوم الكيمياء:

اعتمد علماء المسلمين في معرفتهم لعلم الكيمياء على الكتب المترجمة من اليونانية، وعلى كتب علماء الإسكندرية بالذات، ولكنهم لم يقفوا عند نقل كتب القدماء، بل قاموا باكتشافات مهمة في هذا المجال ويعد العلماء المسلمون أول من وضع أسس الكيمياء الحديثة التي أسهمت ودخلت في الكثير من الصناعات كصناعة الورق، والصابون، والأصبغة، والأدوية، كما يعود إليهم الفضل في اكتشاف الكثير من الأحماض والأكاسيد، كأكسيد الزئبق والكبريتيك، واشتهر منهم الرازي وكتابه الأسرار في الكيمياء، وجابر بن حيان الذي نسب إليه علم الكيمياء وكان له أكثر من مائة مؤلف في هذا المجال(الاسلام والحضارة -1981- (789/2)).

وقد استفاد الأوربيون الكثير من بحوث المسلمين واكتشافاتهم في هذا المجال، وترجمت كتبهم في الكيمياء إلى اللاتينية ككتب ابن حيان والرازي وغيرهما.

8- علوم الفيزياء:

ويعرف أيضاً بعلم الطبيعة، وهو واحد من العلوم العقلية، التي اهتم بها المسلمون اهتماماً كبيراً حيث أبدع علماء المسلمين في علوم الفيزياء، كعلم السوائل والبصريات والميكانيكا، إضافة إلى دراستهم لبعض الظواهر الطبيعية الفيزيائية المهمة التي نجحوا في فهمها، ووضعوا نظريات علمية خاصة بها، كالرياح والأعاصير، والمطر، والسحاب، والصوت، والضوء، والسرعة وغيرها (عبدالرحمن -58).

ويعد الحسن ابن الهيثم من أشهر العلماء المسلمين في هذا المجال، والذي كانت بحوثه سبباً في تقدم علم الضوء والبصريات، كما وكانت بحوثه أساساً للدراسات والأبحاث التي كتبها الأوروبيون وعلى رأسهم نيوتن وديكارت(طوفان-158 & الجندي-170).

ومنهم والبيروني والخازن البصري، وقد نقل الأوربيون عن المسلمين علوم الفيزياء، وترجموا كتاب المناظر للحسن ابن الهيثم، الذي ظل هو المرجع الوحيد لهم طوال العصور الوسطى.

9- علوم الرياضيات:

أبدع علماء المسلمين في علوم الرياضيات كغيرها من العلوم، ويعد الخوارزمي أول من وضع علم الجبر في كتابه (الجبر والمقابلة)، الذي لا يزال محتفظاً باسمه العربي في مختلف اللغات. واقتبس المسلمون في بداية نهضتهم العلمية الأرقام الهندية، ويرجع إلى علماء المسلمين إيجاد طريقة الإحصاء العشري، والكسر العشري، وابتكار الفاصلة للكسر العشري، وأحدثوا بذلك ثورة كبيرة في علم الحساب، والبتاني أول من درس علم المثلثات، والكرخي هو أول من بحث في علم الحساب، وألف فيه كتابه المسمى (الكافي في الحساب)، والبيروني هو أول من بحث في علم الهندسة (اثر العرب والمسلمين في الحضارة-1996-22).

وقد تم العثور على مخطوطات هندية جاء فيها نظام للأعداد التسعة دون الصفر، يخالف النظام الآخر الذي وجد وفيه الصفر، فرجح أن النظام الأخير جاء الهند من البلدان المجاورة، وأن الأرقام تداولتها أمم الشرق في العهد الإسلامي أجيالاً قبل أن تعرفها أمم الغرب، وعن العرب أخذتها أوروبا، هذه الأرقام نشأت في طرف من أطراف الإمبراطورية الإسلامية الشاسعة (لطفي-2006-9). وممن اشتهروا في هذا الجانب الحسن بن الهيثم، وثابت بن قرة، والبيروني، والخوارزمي الذي ترجم له الأوربيون كتابه (الجبر والمقابلة).

10- علوم الزراعة والنبات:

اهتم العلماء المسلمون بعلم الزراعة والنباتات بالتحليل والدراسةً والانتاج، وأصبح لها أصولها وقواعدها، واهتموا بشق الترع والقنوات، وبناء الخزانات والسدود، وقد استفاد الأوروبيون من أبحاث المسلمين ودراساتهم الكثير في هذا المجال، خاصة من كتاب الفلاحة الأندلسية لابن العوام الإشبيلي، الذي يعدُّ موسوعةً زراعيةً عظيمة، تحدث فيه عن فن الزراعة والحرث والغرس والسقي، وتركيب السماد الذي يلائم الأرض، واتجه علماء المسلمين إلى دراسة النباتات والحشائش التي لها قيمة طبية، واستخلصوا منها مواد كثيرة للطب والصيدلة. ومنهم ابن البيطار والدنيوري صاحب كتاب النبات(طوفان-29). وقد اعترف الأوربيون بفضل العلماء المسلمين في نقل كثير من النباتات.

11-علوم الحيوان:

ارتبطت دراسة علم النبات بدراسة علم الحيوان ارتباطاً وثيقاً لدى علماء المسلمين، وكانت المعاجم اللغوية من أبرز الوسائل في دراسة علم الحيوان من حيث شكله الخارجي وأحواله ومعاشه وأوصافه وأجناسه، فقام علماء المسلمين بتدوين الملاحظات الدقيقة على كل حيوان من الحيوانات فيما يختص بحياته وخلقه، واهتموا أيضاً بعلم البيطرة والثروة الحيوانية، وكل ما يتعلق بتطورها ونمائها، ومن أشهر الكتب لدى المسلمين في علم الحيوان كتاب الطير، وكتاب النحل والعسل. وكتاب الحيوان للجاحظ، كما صنفت كتب عن البيطرة مثل علاج الحيوان، وانتقلت كثير من أسماء الحيوانات والطيور بألفاظها إلى أوربا وافريقيا وآسيا(مجلة المجمع الطبي العربي -19-1994-326).

12- العلوم الأخرى:

لم تقتصر مظاهر ومجالات المدنية الإسلامية على ما ذكرناه فحسب، بل امتدت إلى مجالات أخرى كثيرة، كالفلسفة التي كان للمسلمين المساهمة الكبيرة فيها، وكان ابن رشد من أكثر الفلاسفة المسلمين شهرة والذي كان له أثر كبير في أوربا، أدى إلى ظهور الفلسفة الحديثة، وكذلك الغزالي في علم النفس، وعبدالرحمن بن خلدون مؤسس علم الاجتماع، الذي درس الظواهر الاجتماعية على أساس علمي، وكانت وسيلته في الدراسة الاستقراء والقياس، وفي الاقتصاد الإسلامي ظهر كتاب الخراج ليحي بن أدم القرشي، ومن كتب السير كتاب ابن اسحاق وابن هشام ، وكتاب الوقائع الإسلامية للواقدي، وكتاب الفتوح للبلاذري.

وهناك من كَتَب تاريخ العالم من المؤرخين المسلمين كالطبري صاحب كتاب موسوعة تاريخ الأمم والملوك، الذي كتب فيه تاريخ العالم منذ بدء الخلق حتى عام (303 ه)، وابن الأثير صاحب كتاب(الكامل في التاريخ)، وأنساب العرب والقبائل العربية، واشتهر بهذا الفن هشام الكلبي صاحب كتاب(الجمهرة في الأنساب)، وكتب التراجم والطبقات مثل وفيات الأعيان لابن خلكان، وأخبار الحكماء للقفطي، ومعجم الأدباء لياقوت الحموي، وطبقات الشافعية، الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة لابن حجر، والضوء اللامع لأهل القرن التاسع للسخاوي، وأسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير، والطبقات الكبرى لابن سعد، وكتاب الطبقات الكبير للواقدي، وطبقات الشافعية الكبرى للسبكي، وسير أعلام النبلاء للذهبي، وغير ذلك.

المبحث الثاني: نواحي تأثير المدنية الإسلامية على مسيرة الحياة الأوربية

من الحقائق التاريخية الثابتة التي لا تقبل الجدل، أنَّ المدنية الإسلامية أخذت طريقها وعبرت إلى أوربا بواسطة الأندلس، الحروب الصليبية، والاتصالات التجارية بن الشرق والغرب، وكان لكل مسلك من هذه نصيب وافر في نقل معالم المدنية الإسلامية إلى أوربا، وإذا كانت الحروب الصليبية قد امتدت زهاء قرنين من الزمن أحتك اثناءها الغرب بالشرق، فإنه ليس من المبالغة في شيء إذا قيل أن الحروب الصليبية كانت من أبرز تلك المسالك الصليبية، حيث تعد على أنها فصلٌ من فصول تاريخ المدنية في الغرب، ومن أكثرها نقلا لمدنية الإسلام إلى قارة أوربا وهذه النواحي كما يلي:-

أولا- المستشفيات والمعاهد الطبية:

من المبادئ التي قامت عليها المدنية الإسلامية، جمعها بين حاجة الجسم وحاجة الروح، واعتبارها العناية بالجسم ضرورة لتحقيق سعادة الإنسان وحق من حقوقه، لقوله ﷺ : " إِنَّ لِجَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا " (البخاري-1975-3/39). ومن الملاحظ في عبادات الإسلام، تحقيقها أهم غرض من أغراض علم الطب وهو حفظ الصحة. فالصلاة والصيام والحج وما تتطلبه هذه العبادات من شروط وأركان وأعمال، كلها تحفظ للجسم صحته ونشاطه وقوته، وإذا أضفنا إلى ذلك مقاومة الإسلام للأمراض وانتشارها، وترغيبه في طلب العلاج المكافح لها، فقد جاء في الحديث قوله ﷺ: " " تَدَاوَوْا، فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يُنْزِلْ دَاءً، إِلَّا أَنْزَلَ لَهُ شِفَاءً، عَلِمَهُ مَنْ عَلِمَهُ، وَجَهِلَهُ مَنْ جَهِلَهُ" (احمد بن حنبل-18455-30/398)، ولهذا قامت المدنية الاسلامية على أسس قوية في ميدان الطب وعلومه، وفي إقامة المشافي والمعاهد الطبية، وتخريج الأطباء الذين لا تزال الإنسانية تفخر بأياديهم على العلم عامة والطب خاصة.

وكان العرب قد عرفوا مدرسة جنديسابور الطبية التي أنشأها كسرى في منتصف القرن السادس الميلادي وتخرج فيها بعض أطبائهم، كالحارث بن كلدة الذي عاش في عصر النبي ﷺ ، وكان يشير على أصحابه بالتداوي عنده حين تنتابهم الأمراض، وفي عهد الوليد بن عبد الملك أنشئ أول مستشفى في الإسلام، وهو خاص بالمجذومين، وجعل فيه الأطباء، وأجرى لهم الأرزاق. ثم تتابع إنشاء المشافي، وقد كانت تعرف باسم (البيمارستانات) أي دور المرضى(السباعي-220).

وكانت المستشفيات نوعين: نوعاً متنقلاً، ونوعاً ثابتاً، أما المتنقل فأول ما عُرف في الإسلام في حياة النبي ﷺ ، في غزوة الخندق، إذ ضرب خيمة للجرحى فلما أصيب سعد بن معاذ قال ﷺ : اجعلوه في خيمة رفيدة، حتى أعوده من قريب، وهو أول مستشفى حربي متنقل في الإسلام، ثم توسع فيه الخلفاء والملوك من بعد، حتى أصبح المستشفى المتنقل مجهزاً بجميع ما يحتاجه المرضى، من علاج وأطعمة وأشربة وملابس وأطباء وصيادلة، وكان ينقل من قرية إلى قرية في الأماكن التي لم يكن فيها مستشفيات ثابتة، وأما المستشفيات الثابتة، فقد كانت كثيرة تفيض بها المدن والعواصم، ولم تخل بلدة صغيرة في العالم الإسلامي يومئذ من مستشفى فأكثر، حتى أن قرطبة وحدها كان فيها خمسون مستشفى (السرجاني-80 & السباعي-220).

وتنوعت المستشفيات، فهناك مستشفيات للجيش، وهناك مستشفيات للمساجين، وهناك محطات للإسعاف كانت تقام بالقرب من الجوامع والأماكن العامة التي يزدحم فيها الجمهور (السباعي-222).

وهناك المستشفيات العامة، التي كانت تفتح أبوابها لمعالجة الجمهور، وكانت تقسم إلى قسمين منفصلين: قسم للذكور، وقسم للإناث، وكل قسم فيه قاعات متعددة، كل واحدة منها لنوع من الأمراض، فمنها للأمراض الداخلية، ومنها للعيون، ومنها للجراحة وغيرها، ولكل قسم أطباء عليهم رئيس، ولكل الأقسام رئيس عام يسمى (ساعور)،وهو لقب لرئيس الأطباء في المستشفى وكان الأطباء يشتغلون بالنوبة، وفي كل

مستشفى عدد من الفراشين من الرجال والنساء والممرضين والمساعدين، ولهم رواتب معلومة(السرجاني-82). وفي كل مستشفى صيدلية كانت تسمى (خزانة الشراب) فيها أنواع الأشربة والمعاجين وأصناف الأدوية، والآلات الجراحية والأواني الزجاجية وغير ذلك.

وكانت المستشفيات معاهد طبية أيضاً، ففي كل مستشفى إيوان كبير (قاعة كبيرة) للمحاضرات، يجلس فيه كبير الأطباء ومعه الأطباء والطلاب، وتجري المباحث الطبية والمناقشات بين الأستاذ وتلاميذه كما يقع اليوم في المستشفيات الملحقة بكليات الطب. وكان لا يسمح للطبيب بمزاولة مهنة الطب والانفراد بالمعالجة حتى يؤدي امتحاناً أمام كبير أطباء الدولة (حلمي-71).

أما نظام الدخول إلى المستشفيات، فقد كان مجاناً للجميع، لا فرق بين غني وفقير وبعيد وقريب، يُفحص المرضى أولاً بالقاعة الخارجية، فمن كان به مرض خفيف يكتب له العلاج، ويصرف من صيدلية المستشفى، ومن كانت حالته المرضية تستوجب دخوله المستشفى كان يقيد اسمه، ثم يعطى له سرير مفروش، ثم يعطى الدواء الذي يعينه الطبيب، والغذاء الموافق لصحته، بالمقدار المفروض له(السباعي-224 & www.lahaonlion. Com).

هذا هو النظام السائد في جميع المستشفيات التي كانت قائمة في العالم الإسلامي وسنقتصر في حديثنا على أربع مستشفيات في أربع مدن من عواصم الإسلام في تلك العصور وهي :المستشفى العضدي ببغداد الذي بناه عضد الدولة بن بويه عام 371هـ، وجمع له أربعة وعشرين طبيباً، وألحق به كل ما يحتاج إليه من مكتبة علمية وصيدلية. المستشفى النوري الكبير بدمشق: أنشأه السلطان الملك نور الدين الشهيد سنة 549هـ 1154م ، شرط فيه أنه للفقراء والمساكين، المستشفى المنصوري الكبير: المعروف بمارستان قلاوون، كان داراً لبعض الأمراء، فحوّلها الملك سيف الدين قلاوون إلى مستشفى عام 683هـ 1308م، وألحق به مسجداً ومدرسة للأيتام ، ومستشفى مراكش: وهو الذي أنشأه المنصور أبو يوسف من ملوك الموحدين بالمغرب. وأقام فيه الصيادلة لعمل الأشربة والأدهان والأكحال، وغيرها مما يحتاجه المريض(السباعي- 225 & السرجاني- 82)

فهذه نماذج أربعة من مئات المستشفيات التي كانت منتشرة في شرق العالم الإسلامي وغربه، يوم كانت أوروبا تتيه في ظلام الجهل، ولا تعرف شيئاً من هذه المستشفيات ودقتها ونظافتها وسمو العاطفة الإنسانية فيها، ويحسن بنا نقل بعض ما قاله المستشرق الألماني ماكس مايرهوف وهو يصف حال المستشفيات في أوروبا، في العصر الذي كانت فيه المستشفيات في الحضارة الاسلامية كما وصفناها، فمما قاله: " إن المستشفيات العربية ونظم الصحة في البلاد الإسلامية الغابرة، لتلقي علينا الآن درساً قاسياً مُرّاً لا نقدره حق قدره إلا بعد القيام بمقارنة بسيطة مع مستشفيات أوروبا في ذلك الزمن نفسه (السرجاني- 82)،

مرّ أكثر من ثلاثة قرون على أوروبا، اعتباراً من زمننا هذا، قبل أن تعرف المستشفيات العامة، ولا نبالغ إذا قلنا بأنه حتى القرن الثامن عشر (1710م) والمرضى يعالجون في بيوتهم، أو في دور خاصة كانت المستشفيات الأوروبية قبلها عبارة عن دور عطف وإحسان، ومأوى لمن لا مأوى لديه، مرضى كانوا أم عاجزين، وأصدق مثال لذلك هو مستشفى (أوتيل ديو) بباريس، أكبر مستشفيات أوروبا في ذلك العصر، كما وصفه ماكس توردو وتينون بما يلي: يحتوي المستشفى على 1200 سريراً، منها 486 خصصت لنفر واحد، ولم تكن سعة الواحد منها تتجاوز خمسة أقدام فتجد في السرير ذي الحجم المتوسط أربعة أو خمسة أو ستة مرضى متلاصقين، قدم أحدهم على رأس الثاني، تجد أطفالاً بجانب شيوخ، ونساء بجانب رجال، وطعام المرضى من أخس ما يتصوره العقل، يوزع عليهم بكميات قليلة للغاية، وفي فترات متباعدة لا نظام فيها، وكانت أبواب المستشفى مفتوحة في كل وقت وحين، ولكل رائح وغاد، وبهذا تنتشر العدوى بانتقالها بالفضلات وبالهواء النتن الملوث، وتترك جثث الموتى 24 ساعة على الأقل قبل رفعها من السرير المشاع، وكثيراً ما تنفسخ الجثة وتتعفن وهي ملقاة بجانب مريض (السرجاني -82 & ويكيبيديا-الطب والصيدلة بالحضارة الإسلامية).

هذه مقارنة بسيطة بين حالة المستشفيات في عهود الحضارة الإسلامية، وحالتها عند الغربيين في تلك العصور، وهي تدل على مبلغ جهلهم بأصول المستشفيات، وبقواعد الصحة العامة، وكيف أثرت المدنية الإسلامية على المجتمعات الغربية في هذا الجانب. فقد ظلت أوربا في عصورها الوسطى خاضعة لنفوذ الكهنوت، وكان رجال الكهنوت متسلطين على الشعوب الأوربية وطبقاتها المختلفة، يفرضون عليها القوانين مهما كان نوعها، وحرموا الاستحمام، وحرموا الطب وصناعته، معتقدين أن المرض عقابا من الله لا ينبغي للإنسان أن يصرفه عمن استحقه، وظل الطب محجورا عليه إلى ما بعد استهلال القرن الثاني عشر الميلادي. وكانت طرق المعالجة عندهم تعتمد على الرقي والتعاويذ، أو على أساليب في غاية الفضاضة والقسوة، ونتيجة لاختلاطهم بالعالم الإسلامي واطلاعهم على أساليب العلاج والتداوي بدأت تظهر دور العلاج والبيمارستانات، وطرق العلاج الصحيحة في أوربا، واشتغل بعضهم بنقل بعض الكتب الطبية العربية إلى اللاتينية (وات-96 & السامرائي-480)

ثانيا– المدارس والمعاهد العلمية:

كل من ينظر في القرآن الكريم والسنة النبوية، يعلم مدى حث الشريعة على العلم والمعرفة، والثناء على العلم والعلماء، ومن هذا المنطلق اتجه المسلمون نحو العلم والمعرفة منذ نزلت أول **آياته(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ)** (سورة العلق- الآية 1). ولقد كرم الإسلام العلم، وأعطى لأهله من الفضل والمنزلة منزلة كبيرة على سائر الناس، بما فيهم العُبّاد الذين نذروا أنفسهم لعبادة الله تعالى فقال:(**يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ)** (سورة المجادلة- الآية 11)(**قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ)** (سورة الزمر- الآية 9) ويقول ﷺ " فَضْلُ العَالِمِ عَلَى العَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَاكُمْ، إِنَّ اللَّهَ وَمَلاَئِكَتَهُ وَأَهْلَ السَّمَوَاتِ وَالأَرَضِينَ حَتَّى النَّمْلَةَ فِي جُحْرِهَا وَحَتَّى الحُوتَ لَيُصَلُّونَ عَلَى مُعَلِّمِ النَّاسِ الخَيْرَ"(الترمذي -2685-(4/ 347)). وقوله: ﷺ " طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ "(ابن ماجه- 224-(1/ 81)).

وكان المسجد هو النواة الأولى للمدرسة في المدنية الإسلامية، فلم يكن مكان عبادة فحسب بل كان مدرسة يتعلم فيها المسلمون القراءة والكتابة، والقرآن وعلوم الشريعة، واللغة وفروع العلوم المختلفة، ثم أقيم بجانب المسجد الكتاب، وخصص لتعليم القراءة والكتابة والقرآن وشيء من علوم العربية والرياضة، وكان الكتّاب يشبه المدرسة الابتدائية في عصرنا الحاضر وكان من الاتساع أحيانا بحيث يضم الكتّاب الواحد مئات من الطلاب، ثم قامت المدرسة بجانب الكتّاب والمسجد، وكانت الدراسة فيها تشبه الدراسة الثانوية والعالية في عصرنا الحاضر وكان التعليم فيها مجانا ولمختلف الطبقات(السباعي-206 & حسن-2016-191).

وكانت الدراسة فيها قسمين: قسما داخليا للغرباء والذين لا تساعدهم أحوالهم المادية علي أن يعيشوا علي نفقات آبائهم، وقسما خارجياً لمن يريد أن يرجع في المساء إلى بيت أهله وذويه، وكانت كل مدرسة تحتوي علي مسجد، وقاعات للدراسة، وغرف لنوم الطلاب، ومكتبة، ومطبخ وحمام. وكانت بعض المدارس تحتوي فوق ذلك على ملاعب للرياضة البدنية في الهواء الطلق. ومن تلك النماذج التي غمرت العالم الإسلامي كله، الجامع الأزهر، فهو مسجد تقام في أبهائه حلقات للدراسة، تحيط به من جهاته المتعددة غرف لسكن الطلاب تسمى بالأروقة، يسكنها طلاب كل بلد بجانب واحد(السباعي-208).

أما المدرسون وأحوالهم ورواتبهم، فلقد كان رؤساء المدارس من خيرة العلماء وأكثرهم شهرة، ولم يكن المدرسون في صدر الإسلام يأخذون أجرا على تعليمهم، حتى إذا امتد الزمن واتسعت الحضارة وبنيت المدارس وأوقف لها الأوقاف، جُعل للمدرسين فيها رواتب شهرية. ولم يكن يجلس للتدريس إلا من شهد له الشيوخ بالكفاءة. وكان للمدرسين شعارٌ خاص يميزهم عن غيرهم من أرباب المهن، وكانت ملابسهم في الأندلس تختلف قليلاً عن ملابس العلماء والمدرسين في المشرق، وقد أخذ الغربيون عن مدرسي الأندلس زيهم، فكان هو أصل الزي العلمي المعروف الآن في الجامعات الأوروبية (حسن-192).

كانت المدارس تملأ مدن العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه، في مصر ودمشق والموصل وبيت المقدس والعراق وخراسان، وقد كانت نظامية بغداد أولى المدارس النظامية وأهمها. درّس فيها مشاهير علماء المسلمين كالغزالي والشيرازي وإمام الحرمين والشاسي والخطيب والتبريزي والقزويني والفيروز أبادي، وقد بلغ عدد طلابها ستة آلاف تلميذ، فيهم ابن أعظم العظماء في المملكة وابن أفقر الصناع فيها، وكلهم يتعلمون بالمجان، وللطالب الفقير فوق ذلك شيء معلوم يتقاضاه من الريع المخصص لذلك (موقع الحوار نت (المدارس في حضارتنا) & السباعي-214).

وكانت المدارس متعددة الغايات، فمنها مدارس لتدريس القرآن الكريم وتفسيره وتحفيظه وقراءاته، ومنها مدارس للحديث خاصة، ومنها مدارس للفقه بمذاهبه. قال ابن كثير في البداية والنهاية في حوادث سنة إحدى وثلاثين وستمائة: (فيها كمل بناء المدرسة المستنصرية ببغداد، ولم يُبنَ مدرسة قبلها مثلها، ووقفت على المذاهب الأربعة، من كل طائفة اثنان وستون فقيها، وأربعة معيدين، ومدرس لكل مذهب، وشيخ حديث، وقارئان وعشرة مستمعين، وشيخ طب، وعشرة من المسلمين يشتغلون بعلم الطب، ومكتب للأيتام، وقدر للجميع من الخبز واللحم والحلوى والنفقة ما فيه كفاية وافرة لكل واحد ..) إلى أن قال: (ووقفت خزائن كتب لم يسمع بمثلها في كثرتها وحسن نسخها، وجودة الكتب الموقوفة بها) (ابن كثير-1988-13/163).

هذا في الوقت الذي كان الغربيون في تلك العصور نفسها يعانون من جهالة مطبقة ومن أمية متفشية حتى لم يكن للعلم مأوى إلا أديرة الرهبان، وهي مقصورة على رجال الكهنوت فقط، وبينما كان كلُّ واحد في الأندلس يعرف القراءة والكتابة كان في أوربا جميع المسيحيين حتى نبلاؤهم وأشرافهم لا يفكرون في العلم، في الوقت الذي كانت فيه أوربا تكتب على الجلود كان العرب يتعلمون على الورق، ومزدهرة في بلادهم مصانعه "(الرافعي-17 & الجندي -135).

ثالثاً– التقدم والنهضة العلمية:

وفي الوقت الذي كان فيه العلماء المسلمون يتحدثون في حلقاتهم العلمية ومؤلفاتهم عن دوران الأرض وكرويتها، وحركات الأفلاك والأجرام السماوية، كانت عقول الأوروبيين تمتلئ بالخرافات والأوهام عن هذه الحقائق كلها، فعندما اتصل الأوربيون بالمسلمين في الأندلس، ذلك الاتصال الوثيق نشطت حركة واسعة النطاق لنقل أهم الكتب العربية إلى اللغة اللاتينية، وهي لغة الأدباء والعلماء في القرون الوسطى، حتى أن كثيراً من مؤلفات ابن رشد حفظت إلى الآن باللغة اللاتينية، ولا نجد أصلها بالعربية، فقد أسست جمعية لنقل أهم الكتب الفلسفية والعلمية العربية إلى اللغة اللاتينية (حربي-2005-150).

وجاء فردريك الثاني سنة 1215م، واتصل بالمسلمين اتصالاً وثيقاً في صقلية وفي الشام، واقتبس كثيراً من آرائهم وعاداتهم وعقائدهم، وأنشأ سنة 1224م مجمعاً في نابلي لنقل العلوم العربية والفلسفة العربية إلى اللاتينية والعبرية لنشرها في أوربا(أمين-121).

ونشأت حركة واسعة في ترجمة العلوم والمعارف الإسلامية إلى اللاتينية، بعد أن اطلع الأوربيون على معلومات جغرافية وفلكية وتاريخية وزراعية مكنتهم من حب الاستطلاع، وظهرت روح جديدة اشتهرت بالقدرة على الموازنة والتقدير والمعرفة الجديدة، مما هيأ مادة جديدة للتفكير العلمي والخيال المشاعري في آن واحد، ونتج من ذلك عدد كبير من أعظم المؤلفات التاريخية، وكذلك إنشاء المدارس للغات الشرقية بأوربا، وكم يوجد في معجم لغات غرب أوربا من الألفاظ والمصطلحات العربية حتى اليوم (المصري-68 & الحندي-168 & باركر-151).

وأثر الإسلام في تاريخ البشرية كلها، وفي تاريخ أوربا لا سبيل إلى تجاوزه وإنكاره، وظل الأوربيون وقتا طويلا ينكرون هذا الأمر ويتجاهلونه، فجاءت أقلام منصفة في السنوات المائة الأخيرة، فكشفوا كثير من الحقائق، ويعد الأستاذ (هنري بيرون) مؤلف كتاب (محمد وشارون) أن نقطة التحول الخطيرة التي حولت مجرى التاريخ الأوربي هي الإسلام، ويترتب على هذا أن العصر الوسيط والنهضة الحديثة هما من ثمار ظهور الإسلام (الندوي-108).

ويقول (جيمس بريستد):" أن العصر الإسلامي في إسبانيا كان أكبرُ عاملٍ من عوامل المدنية في أوربا، والمخذال المسلمين في إسبانيا كان بمثابة انهزام المدنية أمام الهمجية، وكان الأوربيون يطلقون على الفترة الواقعة بين سقوط روما ٤٥٠ م وبين عصر النهضة اسم القرون الوسطى، وقد كانت مظلمة في أوربا وحدها بينما كانت مضيئة في مختلف أنحاء العالم الإسلامي إلى حدود فرنسا، وكانت إسبانيا في هذه الفترة مضيئةً أيضا بأضواء الإسلام. فبينما كان كل واحد في الأندلس يعرف القراءة والكتابة، كان في أوربا جميع المسيحيين حتى نبلاؤهم وأشرافهم لا يفكرون في العلم، في الوقت الذي كانت فيه أوربا تكتب على الجلود كان العرب يتعلمون على الورق، ومزدهرة في بلادهم مصانعه " (الرافعي-17 & الحندي-135).

وظلت المؤلفات العربية الإسلامية مرجعا تعتمد عليه الجامعات الأوربية، أمثال كتب الرازي وابن سينا التي ظلت كتبه مرجعا عاما لأطباء العالم، وأساسا للمباحثات الطبية في جامعات فرنسا وإيطاليا وغيرها.

وقال الدكتور(جوستاف فالويوني) في كتابه(حضارة العرب): " ويعزى إلى أنه أول من أقام التجربة والملاحظة اللتين هما أساس المناهج العلمية الحديثة، ولكنه يجب أن نعترف قبل كل شيء بأن ذلك كله من عمل العرب وحدهم " (مظهر-132).

ويقول العالم(همبولد): " أن العربَ أرتقوا في علومهم إلى هذه الدرجة التي كان يجهلها القدماء تقريبا" (الرافعي-18).

رابعاً– النشاط التجاري والاقتصادي.

النشاط التجاري الذي حصل بين الشرق والغرب، والتقدم في الملاحة البحرية، وتحسين وسائلها ومقوماتها. ولا سيما استعمال الإبرة الممغنطة (البوصلة) التي شاع استعمالها في السفن العربية، ونقلها عنهم ملاحو البحر الأبيض المتوسط الأوربيون، ثم شاعت شيئا فشيئا عند بقية الملاحين الأوربيين. كل هذا استفاده الأوربيون من المسلمين. وقد تسلم الأوربيون زمام التجارة بأنفسهم، وتعلموا بعض الصناعات، وخاصة صناعة الحرير الشرقي والورق، ونقلوا بعض أشجار الفاكهة، وتعلموا أساليب الزراعة(المصري-68).

وكانت السفن التي ترد من جنوب أوربا ومن شمالها محملة بالجنود والمقاتلين، تعود إلى أوربا مليئة بمختلف السلع والبضائع، من أقمشة مزركشة وأوانٍ مطعمة ومزخرفة، ومن موادٍ غذائية متنوعة، لعل من أعظمها وأهمها قيمة السكر الذي لم تكن أوربا قد عرفته في حينه، حيث كانت تعتمد على العسل فقط، وانتقلت إلى أوربا البسط الفاخرة التي تنافسَ في شرائها النبلاء والسادة، وزينوا بها قصورهم، واستعاضوا بها عن سجاجيد السعف والقش، ثم أخذوا في تقليدها والنسج على منوالها وإلى اليوم ما تزال بعض الأقمشة بأسماء عربية(وات-36).

وقد جُلبت لأوروبا أشياء بالغة الأهمية كالنباتات والثمار الجديدة، والصناعات الجديدة، والأزياء الحديثة، والقطن والحرير والأرجوان، واستخدام المساحيق والمرايا الزجاجية، واتخاذ المسابح، كل هذه إنما انتقلت من الشرق نتيجة اختلاط الأوربيين بالمسلمين(باركر-151).

وسبَّبَ هذا الاتصال التجاري انتقال النباتات الجديدة مثل: السمسم والأرز والليمون والبطيخ والمشمش، كذلك عرفت أوربا التوابل والأباريز في الأكل، وكانت في أشد الحاجة إليها نظراً لبرودة الجو في أوربا، ودخلت الرفاهية والثروة في الأوساط الشعبية، وكانت المدن التي تولت النقل التجاري بين الشرق والغرب من أغنى مدن أوربا ذلك الزمن مثل: مدن جنوه، وبيزه، والبندقية، ومرسيليا.

وصارت مراكب المدن الإيطالية سيدةً على سطح البحر كله دون منازع، ومع نهاية القرن الخامس عشر استعادت الدول البحرية عزمها وبرزت قوة جديدة كإسبانيا وفرنسا، ولم يصبح لهذه المدن حتى أقواها البندقية وزن أمام هؤلاء، فلم يكن البحر المتوسط مسرحا للحرب فحسب، بل كان أيضا جسرا قامت عليه التبادلات التجارية، وبفضل اتجارها مع العرب ازدادت ثراءً وقوةً، وخيراتُ العرب كانت الأساسَ في الثراء والرخاء لا في الشرق فقط، بل في الغرب أيضا، كما أن التجارة العربية كانت هي القوة الاقتصادية ذات الأثر الفعال في أوروبا، وتدين البندقية في تطورها ورقيها وثرائها وارتفاع مستواها الاجتماعي إلى الاتجار مع العرب، فلولا القرفة والكمون ومختلف أنواع الصباغات، وكذلك التوابل والبهارات ما استطاعت البندقية أن تتزعم النهضة الاقتصادية التي ساعدت على ازدهار الغرب وتقدمه(هونكه–38).

خامساً: الناحية السياسية والقومية.

لم تجتمع أوربا في العصور الوسطى على هدف معين مشترك عم شعوبها وجميع طبقاتها مثلما اجتمعت على الحروب الصليبية، فقد كانت هذه الحمية تشمل جميع الطبقات وتدفعها الأغراض المختلفة والدوافع المتنوعة، لكنها كانت تحت هدف واحد هو الاتجاه إلى المشرق، وقتال المسلمين. وهكذا علمت الحروب الصليبية على توحيد شعوب أوربا.

وكانت أعظم العلل التي تفتك بالممالك الأوربية في العصور الوسطى هي النظام الإقطاعي، فقد كان الإقطاعيون يمثلون ملوكا بجانب الملوك، وكانت اقطاعياتهم تمثل دولا وسط الدولة، وكانت الشعوب الأوربية تحت تصرف وحكم هؤلاء الإقطاعيين، يحكمونها حكم العسف والإذلال، فقد سيطرت على كثير من الإقطاعيين فكرة تكوين الممالك والإمارات في المشرق، وأخذوا يجهزون الجيوش والمعدات الحربية لهذا الغرض، وفي سبيل ذلك كانوا يبيعون المدن والقرى لأفراد الشعب المضطهد، فأخذت الطبقة الدنيا تستنشق نسيم الحرية، وتتذوق لذة امتلاك الأراضي والعقارات(كشك–2002–122).

ولم تكن فائدة الملوك أقل من فائدة هؤلاء، فزادت سلطة الملوك باشتراك هؤلاء في الحروب، فخلا لهم الجو فزادت سلطاتهم على رعاياهم، فظهرت الممالك الأوربية الحديثة، وهكذا أسهمت الحروب الصليبية في تفكك النظام الإقطاعي، وجعل المملكة سهلة الانتقال، وأيضا ساعدت على نمو المدن نتيجة لازدياد حركة التجارة (المصري–68).

سادساً – تصحيح المعلومات واتساع النظر.

كانت الأميةُ ضاربةً أطنابها في شعوب أوربا، عندما تحركت هذه الشعوب إلى غزو العالم الإسلامي، وكان الغالب منهم لا يتصور من العالم إلا المحيط الذي يعيش فيه، ولم تكن لهم معلومات ولا تصور صحيح عن بلاد الشرق، ولا عن المسافة التي تفصل بينهم وبينه، حتى أنهم كانوا يجهلون المناطق والأقطار التي يجب عليهم اجتيازها أو سلوكها حت يصلون إلى بلاد الشرق.

فكان أهم ما استفاده الأوربيون هو المشاهدة وإدراك صورة صحيحة عن المجتمع الإسلامي وبلاد الشرق، وقد رجع آلاف من الغزاة الأوربيون إلى بلادهم، وحملوا إلى الناس أخبارا تناقض ما كان ينشره دعاة الحرب من رؤسائهم من أن المسلمين جماعة من الوثنيين، غلبوا على الأرض المقدسة، وأجلوا عنها دين التوحيد، ونفوا فيها كل فضيلة وإخلاص، وهم وحوش ضارية وحيوانات مفترسة، فلما قفلوا إلى ديارهم قصوا على قومهم أن أعدائهم أهل دين وتوحيد ومروءة ووفاء وفضل وتسامح.

وبهذا لقد اكتسبت المجتمعات الأوربية نظرة جديدة للحياة، وقد كان هذا الاتساع في هذه النظرة أكبر ما اكتسبته من الحروب الصليبية، إذا أضفنا إليه روح الكشف وتقدم الجغرافيا، فقد وجد الأوربيون أنفسهم أمام حضارة إسلامية ذات إشعاع عظيم، فبهرهم هذا الإشعاع، ولمسوا التفوق في النظام السياسي، والاجتماعي، والاقتصادي، والقضائي والفكري عند المسلمين، ويُصرِّح الكاتب الإنجليزي (ريد هيجارد) مخاطبا مصر بقوله : " في الوقت الذي كان فيه فراعنتُكِ يتنزهون في زوارق يجدف لها بمجاديف من ذهب، كان أجداد أولئك الذين يستعمرونكِ الآن يقطنون في الغابات، ويقتلون الحيوانات بالأحجار، فيشوون جلودها، ويرمون لحومها جهلا منهم بما يؤكل وما يرمى"(كشك–122).

سابعاً: التنظيم والتشريع الإداري والإصلاح الاجتماعي.

اشتهر كثيرٌ من زعماء أوربا بالتفسخ الأخلاقي، مما دعا مفكري أوربا فيما بعد إلى الثورة الاجتماعية واندلاع حركة الإصلاح، وتعد الإصلاحات التي أدخلها لويس التاسع في مملكة فرنسا نتيجة لما رأى في مصر والشام عندما ذهب متزعماً الحملة الصليبية السابعة. أما فردريك الثاني ملك صقلية وإمبراطور ألمانيا الذي يعتبر أعظم ملوك أوربا تشبعاً بالمدنية الإسلامية واحتذاء بها، والذي قاد الحملة الصليبية السادسة، فهو أول من أسس جامعة علمية بأوروبا، وأول من أسس مجلساً نيابياً، ووضع قاعدة المساواة في الحقوق والتكاليف، وأيد سيطرة القانون على جميع الطبقات، وأطلق حرية كافة العقائد، وأصدر قانونا بالإسعاف الدولي للفقراء. وقد رتب أمور الدولة ترتيبا أجمع المؤرخين على أنه حجر الأساس في تكوين الدولة الحديثة، وأسس الدواوين المختصة، وفصل بين السلطة القضائية والمالية والتشريعية، التي كانت من خصائص الملك وحده، وقضى على سيطرة الكهنوت(حَبَنَّكَة–1998&كشك–123).

ومما استفادت منه المدنية الاوربية التنظيمات الإدارية المختلفة، كالتنظيمات التعليمية في المؤسسات التعليمية، وضوابط العمل فيها، وشيوع التعليم للجميع، والهيكل الإداري لمؤسسات الدولة من حيث وجود الوزراء والصلاحيات التي توكل إليهم للاهتمام بتقديم الخدمات للمواطنين في شتى الجوانب الخدمية والقوانين والتشريعات الإدارية، وخصوصا القوانين التجارية المعروفة في التجارة الدولية.

كما أقتبس الأوربيون من المسلمين كثير من مظاهر الآداب الاجتماعية والأخلاق واللباس، وعادوا لتطبيقها، كما أخذت تظهر طبقات أخرى غير الإقطاعية مثل الطبقة الوسطى (المصري–68)

علاوة على دلك فإن المحاولات الأولى في السعي إلى تحرير الفكر كانت أثرا منطقيا للمبادئ التي جاء بها محمد ﷺ، فإلى الفيلسوف المسلم ابن رشد الذي عاش في إسبانيا من سنة 1120 – 1198م، يرجع الفضل في إدخال حرية الرأي، التي يجب أن لا نخلط بينها وبين الإلحاد إلى أوربا، وهذا التفكير الذي نشأ عنه التفكير المنطقي الحديث "(محمود–151).

ثامنا– المؤسسات الخيرية:

ليس أدلُّ على رقي الأمة واستحقاقها لقيادة العالم، من سمو النزعة الإنسانية في أفرادها، سمواً يفيض بالخير والبر والرحمة على كل طبقات المجتمع، بل على كل من يعيش على الأرض من إنسان وحيوان.

ومن منطلق دعوة الإسلام إلى الخير، دعوة تغلب في النفس الإنسانية بواعث الشح ووسوسة الشيطان في التخويف من الفقر، فيقول القرآن بعد الحث على الإنفاق:(**الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**)(سورة البقرة– الآية:268) ،ويعمم الدعوة إلى الخير كل إنسان فقيراً كان أو غنياً.

ولقد كان مما شكاه الفقراء إلى النبي ﷺ أن الأغنياء يسبقونهم في فعل الخيرات إذ يتصدقون بأموالهم ولا يجد هؤلاء الفقراء ما يتصدقون به، فبيّن الرسول ﷺ أنَّ فعلَ الخير ليست وسيلتُه المال فحسب، بل كل نفع للناس فهو من عمل الخير: إن لكم بكل تسبيحة صدقة، وأمرٌ بمعروفٍ صدقة، ونهيٍ عن المنكر صدقة، وفي إماطة الأذى عن الطريق صدقة، وأنْ تُصلح بين اثنين صدقة، وأن تُعين الرجلَ على دابته فتحمله عليها صدقة(مسلم– 1006(2/ 697)) وهكذا يفتح الإسلام أبواب الخير للناس جميعاً، ويسمو الإسلام بالنفوس إلى أعلى أفق من النزعة الإنسانية الكاملة حين يجعل البر لجميع عباد الله مهما كانت أديانهم ولغاتهم وأوطانهم وأجناسهم وأحب الخلق لله انفعهم لعباده، نظرا لما يقدمه من خدمة لبني جنسه.

ولما نزل قوله تعالى: (**لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ**)(سورة آل عمران– الآية:92) قال أبو طلحة الأنصاري: يا رسول الله، إنَّ أحبَّ أموالي إليّ بيرحاء – وهي بئر طيبة الماء – وإنها صدقة لله ،أرجو برها وذخرها عند الله تبارك وتعالى، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله، فقال ﷺ : " بخٍ بخٍ، ذاك مالٌ رابحٌ، ذاك مالٌ رابحٌ، حبّس الأصل وسبّل الثمرة " (ابن كثير–1419 هـ(63/2)). وكانت هذه الصدقة أول وقف في الإسلام ومن هنا نشأ (الوقف)، وهو الذي كان يمد كل المؤسسات الاجتماعية بالموارد المالية التي تعينها على أداء رسالتها الإنسانية النبيلة.

كانت تلك المؤسسات نوعين: نوعاً تنشئة الدولة وتوقف عليه الأوقاف الواسعة، ونوعاً ينشئه الأفراد من أمراء وقادة وأغنياء ونساء. ولا نستطيع في مثل هذا الحديث أن نعدد أنواع المؤسسات الخيرية كلها، ولكن كان من أهمها المساجد، وكان الناس يتسابقون إلى إقامتها ابتغاءَ وجه الله، وكان الملوك يتنافسون في بنائها، وينفقون فيها أموالاً بالغةً (السباعي–200). ومن تلك المؤسسات المدارسُ والمستشفياتُ.

ومن المؤسساتِ الخيرية أيضا بناء الخانات والفنادق للمسافرين المنقطعين وغيرهم الفقراء، ومنها التكايا والزوايا التي ينقطع فيها من شاء لعبادة الله، ومنها بناء بيوت خاصة للفقراء يسكنها من لا يجد ما يشتري به أو يستأجر داراً، ومنها السقايات أي تسبيل الماء في الطرقات العامة، ومنها المطاعم الشعبية التي كان يفرق فيها الطعام، ومنها بيوت للحجاج في مكة ينزلونها حين يفدون إلى بيت الله الحرام، ومنها حفرُ الآبار في الفلوات؛ لسقي الماشية والزروع والمسافرين، فقد كانت كثيرة جداً بين بغداد ومكة، وبين دمشق والمدينة، وبين عواصم المدن الإسلامية ومدنها وقراها، حتى قلَّ تعرضُ المسافرين – في تلك الأيام – لخطر العطش(السباعي–202 & البطاوي–2018)

أما المؤسسات الخيرية لإقامة التكافل الاجتماعي، فقد كانت هناك مؤسساتٌ لِلُّقطاء واليتامى ولختانهم ورعايتهم، ومؤسسات للمقعدين والعميان والعجز، وتوفير كل ما يحتاجون من سكن وغذاء ولباس وتعليم أيضاً. ومؤسساتٌ لتحسين أحوال المساجين، ومؤسسات لتزويج الشباب والفتيان العزّاب ممن تضيق أيديهم، أو أيدي أوليائهم عن نفقات الزواج وتقديم المهور، وأقيمت مؤسسات لعلاج الحيوانات المريضة، أو لإطعامها، أو لرعايتها حين عجزها، ومن المؤسسات الاجتماعية ما كانت وقفاً لإصلاح الطرقات والقناطر والجسور، ومنها ما كانت للمقابر العامة، ومنها ما كان لشراء أكفان الموتى الفقراء وتجهيزهم ودفنهم(السباعي–203 & الطحان،islamfin.yoo7.com).

كان هذا في الوقت الذي لم تعرف المجتمعات الأوربية ميلها للبر إلا في نطاق ضيق لا يتعدى المعابد والمدارس، أما اليوم فأمم الغرب وإن بلغ الذروة في تقديم تلك الخدمات عن طريق المؤسسات الاجتماعية، لكنها لم تبلغ ذروة السمو الإنساني الخالص لله كما بلغته الأمة الإسلامية في ذلك، فلطلب الجاه أو الشهرة، الأثر الأكبر في اندفاعهم نحو الأعمال الإنسانية، بينما كان الدافع الأول للمسلمين على أعمال الخير ابتغاءَ وجه الله، كانت المؤسسات الاجتماعية تفتح أبوابها لكل إنسان، أيا كان جنسه أو لغته أو بلده أو مذهبه.

تاسعاً– الفنون الحربية والفروسية.

لم يكن الفن الحربي أقلَّ حظا من بقية الفنون الأخرى، فقد اقتبس الغربيون من العالم الإسلامي أموراً كثيرةً عادت عليهم بالتقدم والرقي، والخروج شيئا فشيئا عما كانوا عليه في العصور الوسطى، ومنه ما حدث من تطور في فن الحرب، فعرفوا طرقا جديدة في تشييد الاستحكامات الحربية ومهاجمتها كالقلعة المستديرة، وما اشتهرت به من الأسوار المتتالية التي أخذت تحل محل ما كان معروفا عندهم من قبل، وما يجمعها من سور واحد، وكذلك استعمال أدوات الحصار، كالمنجنيق، واستخدام النيران كهيئة قذائف، وكذلك تدريب الفروسية ، وكذلك استعمال القوس والقذائف والدروع التي يلبسها الفرسان والخيل والوسائد القطنية تحت الدروع، والحمام الزاجل في حمل المعلومات الحربية ووسيلة للاتصال بالجيوش التي تتعرض للحصار من جانب الأعداء لمعرفة أحوالهم، ومن ثم تنسيق الخطط العسكرية معهم (جميعان– 153 & الغامدي–137 & باركر –126).

وعن المسلمين أخذ الأوربيون طريقة تنعيل الخيل بالحديد، وأدخلوا في جوقاتهم الموسيقية والعسكرية الطنبور والطبل، ونفذوا إعادة الاحتفال بالظفر بإشعال الأنوار، والإجراءات التشكيلية للخيل، وشاعت بينهم الأسلحة المزركشة، واستخدام المنجنيق والكبوس، والاعتماد على أنواع المشتعلات والمفرقعات (كشك–126).

ومن ذلك آداب الحرب واخلاقها والتي تأثر بها فرسان أوربا، يقول الكاتب الإسباني المشهور أبانيز: " إن أوروبا لم تكن تعرف الفروسية، ولا تدين بآدابها المرعية، ولا نخوتها الحماسية قبل وفود العرب إلى الأندلس، وانتشار فرسانهم وأبطالهم في أقطار الجنوب " (السباعي–86).

فالعرب هم الذين يرجع إليهم الفضل على سادات أوربا وفرسانها في القرون الوسطى في تعديل عاداتهم الخشنة وتلطيفهما، ثم تعليمهم رقة العاطفة وتهذيب نفوسهم، والرفعة إلى حيث النبل والإنسانية، وكل ذلك من دون أن يصيبهم ضعف يفقدهم من فروسيتهم وشجاعتهم شيء، ويخطئ من يظن أن هذا راجع إلى المسيحية وحدها برغم ما فيها من المزايا والفضائل (محمود–154–السباعي–151)

عاشرا– التسامح:

الدين الإسلامي دين التسامح لا يجبر أحد من الناس على الدخول فيه، ولا يجعل من الخلاف في العقيدة موجباً للظلم والتعسف، فهو مقرر قاعدة لا إكراه في الدين، قال تعالى:(**لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ**)(سورة البقرة– الآية 256)

لذلك استطاع المسيحيون في جميع البلدان الإسلامية أن يمارسوا شعائر دينهم في حرية تامة، حتى ظلت غالبية أهل الشام مسيحية حتى القرن الثالث الهجري، ويذكر بعض المؤرخين أن الدولة الإسلامية كان بها على عهد المأمون أحد عشر ألف كنيسة، وكان المسيحيون أحراراً في الاحتفال بأعيادهم علنا، وحُجاجُهم يأتون آمنين لزيارة الأماكن المقدسة في فلسطين، وبعد أن كان المسيحيون الخارجون على الكنيسة الشرقية يلقون كثيرا من العنت والاضطهاد في بلاد الشام ومصر، إذا بهم يصبحون أحرارا آمنين في ظل الحكم الإسلامي، كما استخدمت الدولة الإسلامية كثيرا من الموظفين المسيحيين الذين وصل بعضهم إلى أرقى مناصب الدولة، من ذلك سرجيوس والد القديس يوحنا تولى منصب خازن بيت المال في عهد عبد الملك بن مروان ، كما أن يوحنا نفسه تولى منصبا هاما في حكم دمشق(عاشور– 1963–207 & ياغي–1997–105).

وبلغت الحرية الدينية في ظل الدولة الإسلامية أنْ أباحت للنصارى الذين يضعون الصلبان على صدورهم في أن يترددوا على المساجد ليجتمعوا فيها مع المسلمين، كما أنَّ المسلمين في الأندلس سمحوا لأساقفة النصارى بعقد مؤتمراتهم ومجامعهم الدينية، مثل مجمع أشبيلية الذي عقد سنة782م، ومجمع قرطبة الذي عقد سنة 852م؛ لأن الأندلسَ الإسلامية كانت دولةً أوربية وحيدة في العصور الوسطى الذي تمتع فيها غير المسلمين بحقوقهم المدنية والدينية كاملة كما تمتعوا برعاية الدولة لهم(عاشور–206).

ولم يكن الأوربيون يعرفون صفة التسامح في العقائد، وإذا كان التعصب يصاحب الجهالة والجمود الفكري، فإن الأوربيين لما هاجموا العالم الإسلامي كانوا مشبعين بروح التعصب المقيت، ولا يصدهم عن التنكيل بالمخالفين لهم في الدين أيُّ شيءٍ، وكانوا يعتدون على أي شخص تمكنوا منه كبيرا كان أو صغيرا، رجلا أو امرأة، سواءٌ كان مقاتلا أو مسالما (السباعي–151). فكانوا في غاية التعصب، وعدم احتمال أي نوع من الشفقة على المسلمين، ولكن عندما اختلطوا بالمسلمين واتصلوا بهم بدى منهم التسامح والاعتدال في معاشرتهم.

الحادي عشر– الرفق بالحيوانات:

هذه الصفة النبيلة جاء بها الإسلام ، وأمر أتباعه بالرفق مع جميع المخلوقات ومنها الحيوانات، ومن هذا المنطلق تعامل المسلمون مع الحيوانات وغيرها معاملة حسنة وبرفق ولين.

وأوصى الإسلام بالرفق بالحيوان في وصايا زاجرة، وحرّم على الإنسان أن يُحمّله ما لا يطيق من الأحمال، أو السير عليه بسرعة فوق طاقته، وعدم ظلمه، أو تعذيبه، أو حبسه، أو منعه الطعام أو الشراب، فإذا فعل به شيئًا من ذلك بيع عليه جبرًا بحكم الحاكم. وما من شيء تفعله جمعيات الرفق بالحيوان في هذا العصر إلا وقد سبق الإسلام إلى أكمل منه.

ومما جاء في الحث على الرفق بالحيوان والوصية بالعناية به، وعقوبة من ظلمه أو عذبه ما جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ قال: " أَنَّ امْرَأَةً بَغِيًّا رَأَتْ كَلْبًا فِي يَوْمٍ حَارٍّ يُطِيفُ بِبِئْرٍ، قَدْ أَدْلَعَ لِسَانَهُ مِنَ الْعَطَشِ، فَنَزَعَتْ لَهُ بِمُوقِهَا فَغُفِرَ لَهَا" (مسلم-2245(4/1761)).

وجاء في الحديث قوله ﷺ : " بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقٍ، فَإِذَا كَلْبٌ يَلْهَثُ، يَأْكُلُ الثَّرَى مِنَ العَطَشِ، فَنَزَلَ البِئْرَ فَمَلَأَ خُفَّهُ ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِفِيهِ، فَسَقَى الكَلْبَ فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ "(البخاري -6009-(9/8) & مسلم- 2244-(4/1761)).

وقوله ﷺ : " عذبت امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ سَجَنَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّارَ، لَا هِيَ أَطْعَمَتْهَا وَسَقَتْهَا، إِذْ حَبَسَتْهَا، وَلَا هِيَ تَرَكَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ "l(مسلم- 2242 -(4/2022) & البخاري 3482 (4/176))

يقول الحافظ ابن حجر رحمه الله في كلامه على حديث «من لا يَرحم لا يُرحم» قال ابن بطال: فيه الحض على استعمال الرحمة لجميع الخلق، فيدخل المؤمنُ والكافر والبهائم المملوك منها وغير المملوك، ويدخل في الرحمة التعاهد بالإطعام والسقي والتخفيف في الحمل وترك التعدي بالضرب(العسقلاني- 1397هـ-(10/ 440))

ومن كلام النووي رحمه الله على حديث المرأة التي عذبت في هرة، فيه دليل لتحريم قتل الهرة وتحريم حبسها بغير طعام أو شراب. وفيه وجوب نفقة الحيوان على مالكه(النووي-(14/ 240)).

وقال في تعليقه على حديث الرجل الذي سقى الكلب " ففي هذا الحديث الحث على الإحسان إلى الحيوان المحترم، وهو ما لا يؤمر بقتله فأما المأمور بقتله فيتمثل أمر الشرع في قتله كالكلب العقور والفواسق الخمس وما في معناهن، وأما المحترم فيحصل الثواب بسقيه، والإحسان إليه أيضا بإطعامه وغيره سواءٌ كان مملوكا أو مباحا، وسواء كان مملوكا له أو لغيره(النووي-(14/ 241)

وفي باب الأمر بإحسان الذبح والقتل وتحديد الشفرة في قوله ﷺ: " إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذِّبْحَ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ، فَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ " (مسلم- 1955 (3/1548)). قال النووي: وهذا الحديث من الأحاديث الجامعة لقواعد الإسلام(النووي-(13/107)).

والتحريش بين البهائم من أعظم ما ينافي الإحسان والرحمة والشفقة بالحيوان، ومن أكبر الظلم والتعذيب الذي حرمه الدين الإسلامي. فقد نهى ﷺ عن التحريش بين البهائم كما يفعل بين الجمال والكباش والثيران والديوك.

وقد عد الذهبي رحمه الله الاستطالة على الدابة من الكبائر فقال: الكبيرة الحادية والخمسون: الاستطالة على الضعيف والمملوك والجارية والزوجة والدابة؛ لأن الله تعالى قد أمر بالإحسان إليهم في قوله تعالى: **(وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ)** .(الذهبي-200) يقول غوستاف لوبون: " والحق أن الشرق جنة الحيوانات، وفي الشرق تُراعى الكلاب والهرة والطيور الح، وتُحلّق الطيور في المساجد، وتوكر في أطنافها مطمئنة، وتأوي الكراكي إلى الحقول من غير أن تؤذى، ولا تجد صبيا يمسّ وكنا، وقيل لي في القاهرة بصيغة التوكيد . وهذا يؤيد ما ذكره بعض المؤلفين ، أن في القاهرة مسجدا تأتيه الهرة في ساعات معينة لتتناول طعامها وفق شروط أحد الواقفين منذ زمن طويل"(لوبون-406)، ويقول أيضا: ويُعامِلُ الشرقيون الكلابَ، وجميع الحيوانات برفق عظيم، ولا ترى عربيا يؤذي حيوانا وإيذاء الحيوان من عادة سائقي العربات في أوربا، وليس من الضروري إذاً أن يؤلف العرب جمعيات رفق بالحيوان."(لوبون-360).

وهذا إنْ دل علي شيء فإنما يدل على أنَّ المجتمعات الأوربية تأثرت بالمسلمين في هذه الصفة، وتعلموا بالرفق بالحيوانات، ولم يكتفوا بذلك بل أنشأوا جمعيات لتوعية عامة الناس تجاه الحيوانات.

الثاني عشر– الملابس والترفيه وفن الطبخ:

أُعجب أهلُ أوروبا بملابس المسلمين، فقلدوهم في اللبس أيضا، واستعمل أهلُ فرنسا الملابس الشرقية الفضفاضة، والعباءات العربية المزركشة بالخيوط الذهبية، والثياب ذات الأكمام الواسعة المطرزة بالخيوط ، ولم تلبث ملابس الفرنجة أن أضحت من الفخامة والأبهة أن صار لها من الصفة الشرقية ما كان لأثاث دورهم ومنازلهم، إذ حمل الفارس الأوروبي عدته وسلاحه، وارتدي برنسا من الحرير، وقلد العربَ والمسلمين أيضا في لبس العمامة، وفي ارتداء سترة من الكتان فوق درعه؛ لوقاية الزرد من حرارة الشمس المحرقة في الصيف وذلك عند خروجه للقتال، ولبس الكوفية بدل الخوذة. كما لبست السيدة الفرنجية القميص الطويل، والسترة القصيرة الموشاة بخيوط الذهب والمزينة بالجواهر(هونكة- 1980 -54& جميعان-153).

تقول زغريد هونكة:" لبس الأوربيون في عصر الحروب الصليبية الملابس العربية المصنوعة من أقمشة عربية الخلعات، عربية الشكل ، عربية الذوق ، عربية الاسم ، عربية الوطن ، وفضلُ العرب على المرأة الغربية في زينتها وأناقتها يتجلى أيضا ليس في ملابسها فحسب، بل أيضا في المساحيق والعطور، فشهرة الشرق في البخور والعطور قديمة، ولم تقف وسائل الزينة والتبرج عند النساء، بل تعدتها إلى الرجال، فالرجل المسلم قد اقتدى برسول الله وتزين بإطلاق اللحية، ثم اتصلت أوروبا بالمسلمين في الحروب، فأقتبسها الرجال وأصبحت اليوم من العادات المستحبة عند الغربيين" (هونكة -54).

وكان فردريك الثاني امبراطورا لصقلية قد اتصل اتصالاً وثيقاً بالعرب، سواء في صقلية أم في أثناء الحملات الصليبية، وتعلق بالعرب تعلقا كبيرا، فلبس الأردية الشرقية، وأخذ كثيرا من عادات العرب وأخلاقهم(مظهر-1960-16).

وأخذ الأوروبيون من المسلمين فن الطبخ وأنواعه المختلفة، وأقبلوا عليها إقبالا شديدا بسبب إعجابهم بنكهتها؛ ولأنها كانت أشهى وألذ من أطعمتهم، وخاصة الأنواع التي يكثر فيها استعمال السكر والبهارات، وأقبلوا على استعمال أنواع الفطائر والمعجنات والتمر الهندي والذرة الشامية والأطايب والبهارات، كما أدخلوا كثيرا من النباتات الشرقية إلى بلادهم مثل البطيخ والثوم والأرز والسمسم والليمون وقصب السكر، بالإضافة إلى أنواع كثيرة من التوابل والأصباغ والعقاقير الشرقية، واستخدموا السكر في أطعمتهم(جميعان-151)

كما أخذ الأوروبيون من المسلمين بعض الألعاب الرياضية مثل: ألعاب الجريد والصولجان، وطرق الصيد المختلفة، كما استعمل الغربيون الآلات الموسيقية الشرقية كالعود والأرغن والمزمار، والقيثارة والربابة، وقلدوا المسلمين في الاحتفاء بأعيادهم وأفراحهم، وفي حفلات لهوهم وفي مجالس الطرب عندهم، وفي الاستماع إلي المغنيات في أفراحهم، كما استدعوا الندابات في المآتم أيضا، وأخذوا طريقة استخدام الحمام الزاجل لنقل البريد وفن تنظيم الحدائق وطرق الري المختلفة (هونكة -155)

واقتبس الأوروبيون من المسلمين عادة الاستحمام وخلع الملابس، فالمعروف عن الأوربيين أنهم كانوا لا يغتسلون إلا مرة أو مرتين كل عام، وبالماء البارد، وكانوا لا يغسلون ملابسهم بعد أن لبسوها، وكانوا يعتقدون أن القذارة مظهر من مظاهر العفاف، بينما الاستحمام وخلع الملابس فسق ودعارة، ولكن حينما ورد الأوروبيون إلي بلاد الشام، وشاهدوا الحمامات في كل مكان، فأعجبوا بها كما هام بها أولئك الغربيون الذين شاهدوها في إسبانيا وصقلية، فألحوا في إدخالها إلى أوربا بالرغم من المعارضات الشديدة(جميعان–167 & هونكة–62). في الوقت الذي بلغت فيه حمامات بغداد وفي أواخر عهد العباسيين بضعة عشر ألف حمام، وحمامات قرطبة 900 حمام. ناهيك عن بقية المدن، وهكذا انتقلت هذه العادة الحميدة إلى المجتمعات الأوروبية وتأثروا بها.

الثالث عشر– الفتوة ومكارم الأخلاق:

تفوقُ المسلمين على الغربيين في الفتوة وما ينبثق عنها من الفضائل أمرٌ معترفٌ به، فلقد أخذ عنهم أهل أوروبا تلك الصفات، وكان لها الأثر الكبير في تلطيف أخلاقهم وشهد بذلك الغرب بأنفسهم، يقول الكاتب الإنجليزي" ايستانلية" في كتابه(صلاح الدين وتاريخ مملكة أورشليم): "إنَّ الذين درسوا تاريخ الحروب الصليبية ليسوا في حاجة إلى أن يتعلموا أن فضائل الحضارة كالشهامة، وكبر النفس وكرم الخلق والتسامح والفتوة الحقيقية والثقافة الرشيقة كانت كلها إبان تلك المكافحات في جانب المسلمين(جميعان–167).

ويقول العالم الفرنسي " فوريل" في كتابه" تاريخ الشعر البروفانسي" هناك ما يدفع المرء إلى استنباط أن عرب الأندلس كان لهم بوساطة مثلهم أثر حقيقي في الحضارة الخلقية، والاجتماعية في جنوب فرنسا، وأخص من ذلك في القسم الأكثر سيادة في هذه الحضارة وهو الفتوة "(جميعان–167)..

ويقول العالم الفرنسي" بار تيليمي سابنهلير" في كتابه(محمد والقرآن) أنه بسبب مخالطة العرب ومحاكاتهم استطاع أشرافنا في العصور الوسيطة أن يجعلوا طباعهم الفظَّةِ لينةً، وعرف فرساننا– دون أن يفقدوا شيئا من شجاعتهم عواطف أكثر نبلا ورقة. ورغم إنسانية المسيحية، ورغم ما تقدمه من خير فليست هي وحدها التي ألهمتهم هذه الأحاسيس(لولون–408).

بل إن المجتمع الغربي قبل اتصاله بالمسلمين في إسبانيا لم يكن يعرف شيئا من الفتوة. يقول غوستاف لوبون:" تخلص النصارى من همجيتهم بفضل اتصالهم بالعرب، واقتباسهم منهم الطبائع النبيلة، ومبادئ فروسيتهم التي منها مراعاة النساء والشيوخ والأولاد، واحترام العهود، والوفاء بالوعود" (لوبون–575).

يقول العالم سيديو: كان العرب يفوقون النصارى كثيرا في الأخلاق والعلوم والصناعات، وكان من طبائع العرب مالا تراه في غيرهم من الكرم والإخلاص والرحمة، وكان من طبائعهم التي امتازوا بها في المحافظة على الكرامة مما يؤدي فيه الإفراط إلي المبارزة والشحناء، وكان ملوك قشتاله ونبرّة على علم من صدق العرب وقراهم، ولم يتردد الكثير منهم في المجيء إلي قرطبة ليعالجهم أطباؤهم المشهورون، وكان أفقر المسلمين يحافظ على شرف أسرته محافظة أشد الرؤساء صلفا"(لوبون–282).

ويقول سانت هيلير: " لقد هُذبت طبائعُ أمرائنا الإقطاعيين الخشنة في العصور الوسطى بفضل علاقتهم وتقليدهم لها، فتعلمَ أشرافُنا وفرسانُنا رقة العواطف ولين الطبائع، وحسن الأخلاق دون أن يفقدوا شيئا من شجاعتهم، وإنني أشك في النصرانية وحدها كانت تستطيع أن تأتي مثل ذلك التأثير مهما يبالغ في إكرامها (لوبون–576). وهكذا تأثرت مجتمعات أوروبا بهذه الصفات التي أخذوها عن المسلمين مما لطف في طبائعهم وهذب أخلاقهم.

الرابع عشر– اللغة والأدب:

تأثر الأدباء الغربيون وخاصة شعراء الأسبان بالأدب العربي تأثراً كبيراً، فقد دخل أدب الفروسية والحماسة والمجاز والتخيلات الراقية البديعة إلى الآداب الغربية عن طريق الأدب العربي في الأندلس على الخصوص.

ولا شك أبداً في تأثير الآداب العربية على قصص وآداب عباقرة الأدب في أوروبا في القرن الرابع عشر وما بعده، " فقد كتب بوكاشيو حكاياته المسماة (بالصباحات العشرة) وهي تحذو حذو ألف ليلة وليلة، ومنها اقتبس شكسبير موضوع مسرحيته (العبرة بالخواتيم) ، كما اقتبس لسنغ الألماني مسرحيته (ناتان الحكيم)، وكان شوسر إمام الشعر الحديث في اللغة الإنكليزية أكبر المقتبسين من بوكاشيو في زمانه، فقد لقيه في إيطاليا ونظم بعد ذلك قصصه المشهورة باسم (حكايات كانتربري) " (السباعي–87).

أما (دانتي) فيؤكد كثير من النقاد أنه كان في (القصة الإلهية) التي يصف فيها رحلته إلى العالم الآخر متأثراً برسالة الغفران للمعري، ووصف الجنة لابن عربي(العقاد–2019–54).

وقد تأثرت القصة الأوروبية في نشأتها بما كان عند العرب من فنون القصص في القرون الوسطى، وهي المقامات، وأخبار الفروسية، ومغامرات الفرسان في سبيل المجد والعشق، وكان لألف ليلة وليلة بعد ترجمتها إلى اللغات الأوروبية في القرن الثاني عشر أثرٌ كبير جداً في هذا المجال، حتى أنها طُبعت منذ ذلك الحين حتى الآن أكثر من ثلاثمائة طبعة في جميع لغات أوروبا، حتى ليرى عدد من النقاد الأوروبيين أن رحلات (جليفر) التي ألفها (سويفت) ورحلة (روبنسون كروزو) التي ألفها (ديفوه) مدينة لألف ليلة وليلة، ولرسالة حي بن يقظان للفيلسوف العربي ابن طفيل(العقاد–54 & السباعي–88).

إضافة إلى ما دخل على اللغات الأوروبية على اختلافها من كلمات عربية في مختلف نواحي الحياة، حتى أنها لَتكاد تكون كما هي في اللغة العربية، كالقطن، والحرير الدمشقي، والمسك، والشراب، والجرة، والليمون، والصِّفر، وغيرها مما لا يُحصى (السرجاني–714).

الخامس عشر– فن العمارة والزخرفة والاثاث:

بلغ العرب في العمارة شأنا بعيداً، وأخذوا من الأمم التي اختلطوا بها ما أخذوا، فقد تأثر المسلمون بالأساليب الفنية في البلاد التي خضعت لهم وانتشر فيها دينهم، وورث المسلمون فنون روما وبيزنطة وإيران وأشور، فظهرت فنون إسلامية أثرت بدورها في فنون الغرب، وتركت فيها آثار لا تخفى، فقد شيدوا المساجد الفخمة والقصور الجميلة، والنوافذ المزدوجة، والعقود المفتوحة، والعقود الثلاثية، والشرفات والقباب، وابتدعوا أساليب جديدة غاية في الجودة والإبداع، ثم أخذت عنهم أوروبا كثيراً منها(حسن–93).

والواقع أنَّ العالم المتمدن في القرون الأولى بعد الميلاد، كان قد سئم الفن اليوناني القديم، وتاق إلى نوع من التجديد ينقذه من منتجات هذا الفن الذي أعوزه التنوع والابتكار، فتطلع إلى تقاليد فنية أعظم أبهة وأكثر حرية في الزخارف. تلك الأساليب الفنية المنشودة وجدها العالم المتمدن عند الساسانيين أولا، ثم في الفنون الإسلامية بعد أن امتدت الدولة الإسلامية واتسعت أرجاؤها(حسن–93)

وكانت البيوت قبل ذلك في باريس ولندن تبني من الخشب والطين المعجون بالقش والقصب، ولم يكن فيها منافذ ولا غرف مؤنقة، وكانت البُسُط مجهولة عندهم، لا بِساط لهم غيرُ القش ينشرونه على الأرض، ولم يكونوا يعرفون النظافة، ويطرحون أحشاء الحيوانات وأقذار المطابخ في ساحت بيوتهم، فتتصاعد منها روائح مؤذية، وكانت الأسرة الواحدة تنام في حجرة واحدة تضم الرجال والنساء والأطفال، وبعض الحيوانات الداجنة، وكان السرير عندهم عبارة عن كيس من القش فوقه كيس من الصوف، يُجعل مخدة أو وسادة ولم يكن للشوارع مجار، ولا بلاط، ولا مصابيح(حسن–2016–204)

وأخذ الغربيون من المسلمين أصول فن العمارة والعناصر المعمارية المهمة والزخارف بأنواعها، والكتابات العربية والجواسق والأطناف، والأبراج والسياجات التي استخدمت كثيرا في العمارات المدنية والحربية في القرون الوسطى، وبالإضافة إلى ذلك قلد الأوروبيون المسلمين في أدوات المائدة والأواني الخزفية والنحاسية الجميلة المنمقة، والصحون والأطباق والسكاكين المصنوعة من الذهب والفضة، والمعادن الثمينة، وتوافرت في هذه المنازل والدور الحجرات الجميلة للنساء، وقاعات الاستقبال الواسعة، والحمامات الشرقية، وجميع وسائل الراحة التي تمثلت في المدنية الإسلامية، وقد فرشت تلك المنازل بالسجاد والرياش، وزينت بالأثاث الفاخر &www. islamiquesemonsite.com جميعان–152).

ولأن تصوير المخلوقات مكروهاً في الإسلام، فقد أصبح عماد الزخارف الإسلامية الأشكال الهندسية والرسوم النباتية مضافاً إليها عامل جديد هو حروف الكتابة بالخط الكوفي، أو بغيره من الخطوط. فأخذ الأوروبيون يقلدون الكتابة العربية على مصنوعاتهم، ومن أمثلة ذلك صليب من البرونز المذهب يرجع عهده إلى القرن التاسع، وهو محفوظٌ الآن بالمتحف البريطاني وعليه بالخط الكوفي (بسم الله)، وفي المتحف البريطاني أيضا عملةٌ ذهبيةٌ ضربها الملك الذي حكم مرسية من سنة 757 إلى 796م، وهذه العملة نقلها الملك المذكور عن دينار عربي ضرب سنة 774م فنقل فيما قلده التاريخ الهجري والعبارة العربية المكتوبة عليه فنقلوها كزخارف فحسب، وقلدهم في ذلك كثيرون(مجلة الرسالة –93– 1935م–93). أما أساليب المسلمين في نقش الخشب وزخرفته وتطعيمه، فقد ظهر تأثيرها في فنون البلاد الأوربية التي كان لها بالعرب اتصال مباشر كالأندلس وجنوب فرنسا وصقلية .

السادس عشر– الحرف والمصنوعات:

عندما أينعت المدنية الإسلامية أدخل العرب إلى الأندلس صناعة الورق، وأصبحت قرطبة في القرن العاشر أكثر المدن في أوروبا ازدهاراً وأعظمها مدنية، وكان عصر ملوك الطوائف والمرابطين والموحدين باعثاً على تعدد مراكز العلم والأدب والفن، وكان سقوط طليطلة سنة 1085م، وقرطبة سنة 1236م، وأشبيلية سنة 1248م، أكبرُ عاملٍ على امتزاج الصناع العرب أو المستعربين بغيرهم. ثم كان سقوط غرناطة سنة 1492م خاتمة هذا الطور الذي تعلم فيه صناع الغرب عن المسلمين كثيراً من أسرار صناعاتهم في العمارة والفنون الفرعية، واشتغل الصناع (المدجنين) بزخرفة الكنائس والدور الخاصة في أنحاء إسبانيا، ونبغوا في الفنون الفرعية كصناعة الخزف والمنسوجات، والنقش على الأخشاب، وكانت لهم في ميدان العمارة آثارٌ كثيرة، وأهمها قصر أشبيلية الذي بنوه سنة 1360م، والذي أصبح متحفاً يعجب الزائرون بعمارته العربية وما يحويه من تحف إسلامية نادرة(أرندولد–2018–6).

وقد كان للخزف الإسلامي أثرٌ كبير في تطور صناعة الخزف في أوربا، وقد ظلت صناعة الخزف الإسباني العربي في الأندلس حتى القرن السادس عشر، وتعلمها الإيطاليون في القرن الخامس عشر، فتأثروا في الصناعة والزخارف والأشكال بما كانوا يستوردونه من إسبانيا، وأصبح أفوذجاً للصناع فيها، ولم يكن أثر صناعة المعادن الإسلامية في أوروبا بأقل من أثر صناعة الخزف، فقد قام البنادقة بصك نقود ذهبية للتعامل مع المسلمين وعليها كتابات عربية وآيات قرآنية، فضلاً عن التاريخ الهجري، وظل هذا حتى سنة 1249 (مجلة الرسالة –93– 1935–93 & أرندولد–28).

وأخذ الأوروبيون عن الشرق الإسلامي الاسطرلاب، وهو آلة فلكية لقياس بعد الكواكب. اخترعها الإغريق وحسنها بطليموس الجغرافي، ثم علماء الفلك من المسلمين، حتى أخذها عنهم علماء الغرب في القرن العاشر وفي المتحف البريطاني أقدمُ إسطرلاب عليه تاريخ صنعه أحمد ومحمود ابنا إبراهيم الإسطرلابي الأصفهاني سنة 1260م، وقد ظل البحارة يستخدمون الإسطرلاب في مراقبة الجو وشؤون الملاحة، حتى خلفته اختراعات أخرى في القرن السابع عشر(أرندولد–28) .

وقد كان للأوربيين في القرون الوسطى نوعٌ من أواني المياه، كانوا يستعملونها في غسل أيديهم قبل الأكل وبعده، ولا ريب أن صناعتها كانت متأثرة بما كان عند المسلمين من أوانٍ مماثلة على شكل طيور أو حيوانات من البرونز والنحاس، ولعل أحسن مثل مكبر لتلك الأواني – وإن كان عظم حجمه يفرقه عنها – هو ذلك العقاب النحاسي الكبير المحفوظ الآن بالكامبو سانتو بمدينة بيزا في إيطاليا، والذي يظن أنه من عصر الفاطميين بدليل ما عليه من نقوش كوفية وزخارف هندسية، وصور حيوانات، وليس معروفاً من الذي نقله إلى إيطاليا، ولا في أي المناسبات كان ذلك (مجلة الرسالة –93– 1935–97).

وقد حذق المسلمون فن صناعة الذهب والفضة، وصناعة الثريات والأواني، والصناديق والكراسي والتنانير والمباخر من النحاس المكفت بالفضة والمذهب، وكُثر الإقبال على هذه التحف في أوروبا، وبلغت أوج عزها في القرن الخامس عشر، وفي المتاحف والمجموعات الأثرية أمثلة كثيرة من التحف الفنية النفيسة المصنوعة في إيطاليا في القرنين الخامس عشر والسادس عشر، والتي تشهد بحسن الذوق وجمال الزخرف ودقة الصناعة. هذا بالإضافة إلى ما في اللغة الإيطالية وغيرها من اللغات الأوربية من الألفاظ الاصطلاحية المنسوبة إلى المدن الإسلامية في صناعة المعادن كدمشق وغيرها (مجلة الرسالة –93– 1935–100).

وكان لصناعة الزجاج المموه بالمينا شأنٌ كبير عند المسلمين، كما يتجلى من مجموعة المشكاوات النفيسة المحفوظة بدار الآثار العربية بالقاهرة، والتي يرجع عهدها إلى القرنين الرابع عشر والخامس عشر، وقد تقدمت صناعة الزجاج في البندقية منذ القرن الثالث عشر تقدماً كبيراً، فأخذوا يقلدون صناعة الزجاج عند المسلمين، فما لبثوا أن برعوا مثلهم في تمويه الزجاج بالمينا، وانتشرت هذه الصناعة من البندقية إلى غيرها من المدن الأوربية، وظهرت زخارف وطرز جديدة دون أن تزول القرابة بينها وبين النماذج الإسلامية الأولى، وكذلك قلد البنادقة صناعة التجليد الإسلامية، ونقلوا بعض أساليبها، ونقلها عنهم غيرهم من صناع الغرب، فلا عجب إن وجدنا حتى الآن في صناعات التجليد الأوربية المختلفة كثيراً من تفاصيل الصناعة الإسلامية وزخارفها، ولا يزال (اللسان) المعروف في صناعة التجليد العربية موجوداً في تجليد بعض الكتب الأوربية(مجلة الرسالة –93– 1935–97).

أما المنسوجات في البلاد الإسلامية وأثرها الكبير في صناعات النسيج الأوروبية فبعد أن كانت صناعة النسيج زاهرة في فارس ومصر وسورية قبل الفتوح الإسلامية، كثر الإقبال على المنسوجات الإسلامية وتهافت على شرائها التجار، فعمت شهرتها أوربا في العصور الوسطى، وأصبحت أكثر أنواع المنسوجات في ذلك العهد تحمل أسماء شرقية، أو تنسب إلى مدن إسلامية، وكان العرب قد أقاموا في صقلية مصانعاً شهيرةً للنسج ظلت عامرة بعد أن تقوض سلطان المسلمين في الجزيرة، فتعلم الإيطاليون في هذه المصانع أسرار النسيج الإسلامي ودقائقه، ونقلوه إلى بلدان إيطاليا المختلفة، وحفلت المنسوجات الحريرية الإيطالية في القرن الرابع عشر بالزخارف الشرقية حتى الكتابات العربية منها، وكان السجاد أيضاً مما أخذه الأوروبيون عن الشرق منذ القرن الرابع عشر، فتعلم الصناع الغربيون صناعته من المسلمين بالأساليب العربية في زخارفه(مجلة العمارة والفنون– www.islamicstory.com، & 7–9).

السابع عشر– المدن الكبرى:

عند إلقاء نظرة سريعة على مدن العالم الإسلامي ومدن العالم الغربي في ذلك الوقت سيدهشنا الفرق الكبير بين العالمين؛ لأننا سنرى عالماً زاخراً بالحياة والقوة والحضارة – وهو العالم الإسلامي – وعالماً بدائياً لا أثر فيه لحياة أو علم أو حضارة – وهو العالم الغربي – فكيف كانت معيشة سكانه واتساع مدنه ومستوى أهله.

كانت أوروبا في ذلك العهد غاصة بالغابات الكثيفة، متأخرة في زراعتها، وتنبعث من المستنقعات الكثيرة في أرباض المدن روائح قتالة، تجتاح الناس وتحصدهم. وكانت البيوت في باريس ولندن تُبنى من الخشب والطين المعجون بالقش والقصب، ولم يكن فيها منافذ ولا غُرف مدفئة، وكانت البُسط مجهولة عندهم، لا بِساط لهم غير القش ينشرونه على الأرض، ولم يكونوا يعرفون النظافة، ويلقون بأحشاء الحيوانات وأقذار المطابخ أمام بيوتهم، فتتصاعد منها روائح مزعجة(حسن–203)، ولم يكن للشوارع مجارٍ ولا بلاط ولا مصابيح، ولم تكن أكبر مدينة في أوروبا تضم أكثر من خمسة وعشرين ألفاً السباعي–271 & www.lahaonlion. Com). هكذا كان الغرب في القرون الوسطى حتى القرن الحادي عشر فما بعده، باعتراف مؤرخيهم أنفسهم.

وبالانتقال إلى الشرق إلى حيث المدن والعواصم الإسلامية كبغداد، ودمشق، وقرطبة، وغرناطة، وإشبيلية وغيرها. كانت قرطبة في عهد عبد الرحمن الثالث الأموي عاصمة الأندلس المسلمة، تنار بالمصابيح ليلاً ، أزقتها مبلطة، وقماماتها مرفوعة من الشوارع، محاطة بالحدائق الغناء حتى كان القادم إليها يتنزه ساعات في الرياض والبساتين قبل أن يصل إليها، كان سكانها أكثر من مليون نسمة (الغسان–2017–171).

وكانت حماماتها تسعمائة حمام، وبيوتها 283.000 بيت، وقصورها ثمانون ألف قصر، ومساجدها ستمائة مسجد، وكان فيها 80 مدرسة يتعلم فيها الفقراء مجاناً، وخمسون مستشفى(الغسان–171 &حسن–205)، وأما مسجدها فكان ولا تزال آثاره حتى اليوم آية خالدة في الفن والإبداع ، أما محرابه فقيل أنه أجمل ما تقع عليه عين بَشَر، وأنه لا يرى أحسن من زخرفه وسنائه في أي أثر قديم أو حديث.

وقد أُلحق بقرطبة بناءُ الزهراء الخالد في التاريخ بفنه وروعته، حتى قيل فيه أنه كان أعجوبة الدهر التي لم يخطر مثل خيالها في ذهن بنَّاء منذ برأ الله الكون، ولا تمثل رسم كرسمها في عقل مهندس منذ وُجدت العقول ، وفي الزهراء المجلس المسمى (قصر الخلافة) استغرق بناء الزهراء أربع سنوات. وفي هذا القصر العظيم استقبل الخليفة المستنصر عام 351 ملك إسبانيا المسيحية أردون بن اذفونش(حسن- 208 www.lahaonlion. Com)، وكان سقفه وحيطانه من الذهب والرخام الغليظ الصافي المتلون أجناسه، له ثمانية أبواب على حنايا من العاج والأبنوس المرصع بالذهب وأصناف الجواهر، قامت على سواري من الرخام الملون والبلور الصافي، وكانت الشمس تدخل على تلك الأبواب فيضرب شعاعها على صدر المجلس وحيطانه، فيصير من ذلك نور يأخذ بالأبصار، وفي غرناطة تتجلى لنا عظمة البناء والعمارة في قصر الحمراء، وقد كان آية في الجمال، ولا يزال محط أنظار السائحين من بلاد العالم كلها، وكانت فيه قاعات متعددة منها قاعة الأسود، وقاعة العدل، وقاعة السفراء(العامري-2012-256).

وأما المدنُ الأندلسية الأخرى وما كانت عليه من رقي وعظمة فذلك حديث طويل، وأما في الشرق الإسلامي الشرقي فسنكتفي بالإشارة إلى نموذجٍ من مدنه الكبرى ومدنته الرائعة، وذلك بالحديث على بغداد وكيف كانت حين بنيت من عجائب الدنيا التي لا مثيل لها في القديم. فعندما عزم المنصور على بنائها أحضر المهندسين وأهل المعرفة بالبناء والعلم بالذرع والمساحة وقسمة الأرضين، وبلغ مجموع ما أُنفق على بنائها أربعة ملايين وثمانمائة ألف درهم، وبلغ عدد العمال المشتغلين فيها مائة ألف، وكان لها ثلاثة أسوار يلي الواحد منها الآخر، وبلغ عدد سكانها مليوني نسمة، وبلغت عدد دروبها وسككها ستة آلاف بالجانب الشرقي وأربعة آلاف بالجانب الغربي، وكان فيها عدا دجلة والفرات، أحد عشر نهراً فرعياً تدخل مياهها إلى جميع بيوت بغداد وقصورها، أما حماماتُها فقد وصلت للألاف في أواخر عهد العباسيين، وأما مساجدُها فقد بلغت ألافا، وأما سكانُها وكثرة العلماء والأدباء والفلاسفة فذلك فيها لا يحيط به حصر، وكذلك دار الخلافة فيها تمثل ما وصلت إليه أبهة وعظمة الخلافة، وكانت في اتساعها تضم ثلاثة وعشرين قصرا(حسن-208& www.lahaonlion. Com).

ومما يَلفتُ الانتباه أن الزائر لمدن الغرب وعواصمه كباريس، ولندن، وروما، وبرلين وغيرها يدهشه ما يراه اليوم فيها من تخطيط، وعمران، ونظافة، ورصف الشوارع، وإنارة، ورقي مقارنة بما هو عليه حال كثير من مدن وعواصم البلاد الإسلامية، وانعدام كثير من الخدمات فيها بعد أن تتلمذ هؤلاء على أيادي المسلمين ومدنتهم في كل ذلك.

الخاتمة

وبعد هذه الدراسة المتواضعة نخلص إلى النتائج والتوصيات التالية:-

أولا– النتائج

- كان ظهور المدنية الإسلامية قد مثل فصلا جديدا من فصول المدنية في مسيرة الحياة البشرية على كل المستويات التي لا مجال لإنكارها، أو التقليل من شأنها أو طمس معالمها.
- حققت المدنية الإسلامية للإنسانية من أسباب النمو والرفاة والتقدم في جميع جوانب الحياة، ما أثار الدهشة والاعجاب لدى الكثير من العلماء والمؤرخين.
- لا صحة لدعوى أن المسلمين كانوا مجرد ناقلين أو حفظة للمدنية اليونانية أو الفارسية أو الهندية، وأنهم لا قدرة لديهم على الابداع والإضافة، فقد أضاف العلماء المسلمون إضافات باهرة إلى مسيرة الحياة العلمية والفكرية، ساهمت مساهمةً كبيرة في ما وصلت إليه الحضارة الأوروبية الحديثة.
- انطلاقا من تعاليم الإسلام إلى إعمار الأرض، انطلق العلماء والمفكرون السلمون في شتي مجالات العلوم والفنون لإعمار وبناء الأرض، والعمل من أجل خدمة البشرية.
- صور ونواحي تأثير المدنية الإسلامية على مسيرة الحياة البشرية عامة، وعلى الحياة الأوربية ومدنيتها واضحه في شتي النواحي، وما من ناحية من نواحي المدنية الأوروبية إلا وللمدنية الإسلامية الفضل في ذلك، ابتداءً من النهضة العلمية والطب إلى فنون الطبخ والترفيه.

ثانيا–التوصيات:

أوصي الباحثين والدارسين بدراسة نواحي تأثير المدنية الإسلامية على مسيرة الحياة البشرية دراسة عميقة وذلك بدراسة ذلك التأثير على كل بلد بشكل خاص ودراسة خاصة ليتضح عمق ذلك التأثير ونتائجه.

فهرس أهم المصادر والمراجع

[1] القرآن الكريم.

[2] ابن حنبل، أحمد بن محمد بن حنبل، مسند الإمام أحمد بن حنبل، المحقق: شعيب الأرنؤوط – عادل مرشد، وآخرون، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، 1421 هـ – 2001 م.

[3] ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد، مقدمة ابن خلدون، دار الفكر، بيروت، الطبعة2، 1988م.

[4] ابن كثير، أبو الفداء اسماعيل ،البداية والنهاية، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، 1988م.

[5] ابن كثير، أبو الفداء اسماعيل، تفسير ابن كثير، دار الكتب العلمية- بيروت، الطبعة الأولى،1419هـ.

[6] ابن ماجه، أبي عبدالله محمد بن القزويني، سنن ابن ماجه، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة .

[7] أرندولد، شيرست، الفنون الإسلامية وتأثيرها في الفنون الأوربية، ترجمه د. زكي محمد حسن، ط2018م.

[8] أمين، أحمد الإسلام كعامل في المدنية- فيض الخاطر-، الجزء العاشر، دار المحرر الأدبي.

[9] البخاري، محمد بن إسماعيل، الجامع الصحيح، الإمام، دار طوق النجاة، القاهرة ، ط 1، 1422هـ.

[10] الترمذي، أبي عيسى محمد بن عيسى، سنن الترمذي، دار الغرب، بيروت، 1998م.

[11] الجانب العلمي في الحضارة الإسلامية، www. elgasser. Math. Com م.

[12] جميعان، ميخائيل: المؤثرات الثقافية الشرقية على الحضارة الغربية ، المطبعة الاقتصادية.

[13] الجندي، أنور، الثقافة العربية، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط1، 1982م.

[14] حَبَنَّكَة، عبد الرحمن، الحضارة الإسلامية أسسها ووسائلها وصور من تطبيقات المسلمين لها ولمحات من تأثيرها، دار القلم- دمشق، الطبعة الأولى، 1998م.

[15] حربي، خالد أحمد، علوم الحضارة الإسلامية ودورها الإنساني، ط الأولى، 2005م.

[16] حسن ،علاء خلف، الثقافة الإسلامية ودورها الحضاري، دار أمجد، الأردن، ط الأولى، 2016م.

[17] حسن، زكي محمد الفن الإسلامي في مصر من الفتح العربي إلى نهاية العصر الطولوني، القاهرة.

[18] حلمي، مصطفى، مناهج البحث في العلوم الإنسانية بين علماء الإسلام وفلاسفة الغرب، دار الكتب العلمية، بيروت.

[19] حنبل، أحمد بن حنبل، مسند أحمد بن حنبل، دار الحديث، القاهرة، ط 1، 1990م .

[20] الدفاع، علي عبد الله، أثر علماء العرب والمسلمين في تطوير الفلك، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط الأولى، 1981م.
[21] الدوري، عياض عبدالرحمن، تأثيرات الزكش العربي الإسلامي في فنون أوربا، مجلة العمارة والفنون، العدد التاسع.
[22] الذهبي، شمس الدين أبي عبد الله محمد، الكبائر، دار الندوة، بيروت.
[23] السايح، أحمد عبد الرحيم، الحضارة الإسلامية ،الجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة، العدد الثالث– نوفمبر تشرين ثاني 1978م.
[24] السباعي، مصطفي السباعي، من روائع حضارتنا، دار الوراق، بيروت، ط1، 1999م.
[25] السرجاني، راغب، قصة العلوم الطبية في الحضارة الإسلامية، مؤسسة إقرأ، القاهرة.
[26] شعث، رائد طلال الثقافة الإسلامية في مواجهة الغزو الثقافي، الموسوعة الشاملة.
[27] الطحان، عبدالرحمن، الأوقاف ودورها في تشييد الحضارة الإسلامية، islamfin.yoo7.com.
[28] عارف، نصرت محمد، الحضارة – الثقافة – المدنية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط2، 1994م.
[29] عاشور، سعيد عبد الفتاح، المدنية الإسلامية وأثرها في الحضارة الإسلامية، دار النهضة، القاهرة، ط الأولى، 1963م.
[30] العامري، محمد بشير، مظاهر الإبداع في التاريخ الأندلسي، دار غيداء للنشر، ط1، 2012م.
[31] عبدالرحمن، حكمة نجيب، دراسات في تاريخ العلوم عند العرب ، مطابع جامعة الموصل، 1977م.
[32] العسقلاني، أحمد بن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، دار المعرفة، بيروت، 1397هـ.
[33] العقاد، عباس محمود، أثر العرب في الحضارة الغربية، القاهرة، ط2019م.
[34] الغسان ، محمد هشام، قصور وحدائق الأندلس العربية الإسلامية، دار الكتب العلمية، 2017م.
[35] فروخ، عمر، تاريخ العلوم عند العرب، دار القلم للملايين، بيروت، ط الثالثة، 1980م.
[36] فروخ، عمر، تاريخ العلوم عند العرب، دار القلم للملايين، بيروت، ط الثالثة،1980م.
[37] كشك، عبد الحميد، خذوا من أحداث التاريخ عبرة، مكتبة العباسية، الطبعة الثانية، 2002م.
[38] لاوات، مونتجوري، فضل الإسلام على الحضارة الغربية، ترجمة: حسين أحمد أمين، دار الشروق.
[39] لوبون، غوستاف، حضارة العرب، ترجمة: عادل زُعَيتر ، د. ن. د. ت.
[40] مجموعة مؤلفين المعجم الوسيط، ، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، دار الدعوة.
[41] محمود، عبد الحليم أوربا والإسلام، دار المعارف، القاهرة.
[42] المسلماني، بسام حسين، حضارتنا الإسلامية– المدن والحواضر، www.lahaonlion. com.
[43] المصري، جميل، حاضر العالم الإسلامي وقضاياه المعاصرة، ، ج1.
[44] مظهر، جلال، مآثر العرب على الحضارة الأوربية، مكتبة الأنجلو المصرية، 1960 م.
[45] الملا، أحمد علي، أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوروبية، دار الفكر، بيروت.
[46] الندوي، أبو الحسن، الإسلام أثره في الحضارة وفضله على الإنسانية، دار الصحوة، الطبعة الأولى.
[47] الندوي، أبو الحسن، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، مكتبة الإيمان، المنصورة – مصر.
[48] النووي، محي الدين، المنهاج في شرح صحيح مسلم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط2.
[49] النيسابوري، الإمام مسلم القشيري، الجامع الصحيح، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
[50] هونكة ، زغريد، شمس العرب تسطع على الغرب، ترجمة: فاروق بيضون وكمال دسوقي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط4، 1980م.
[51] وِل ديورَانت، ويليام جيمس ديورَانت، قصة الحضارة ترجمة: الدكتور زَكي نجيب محمُود وآخرين، دار الجيل، بيروت – لبنان، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، 1988م.